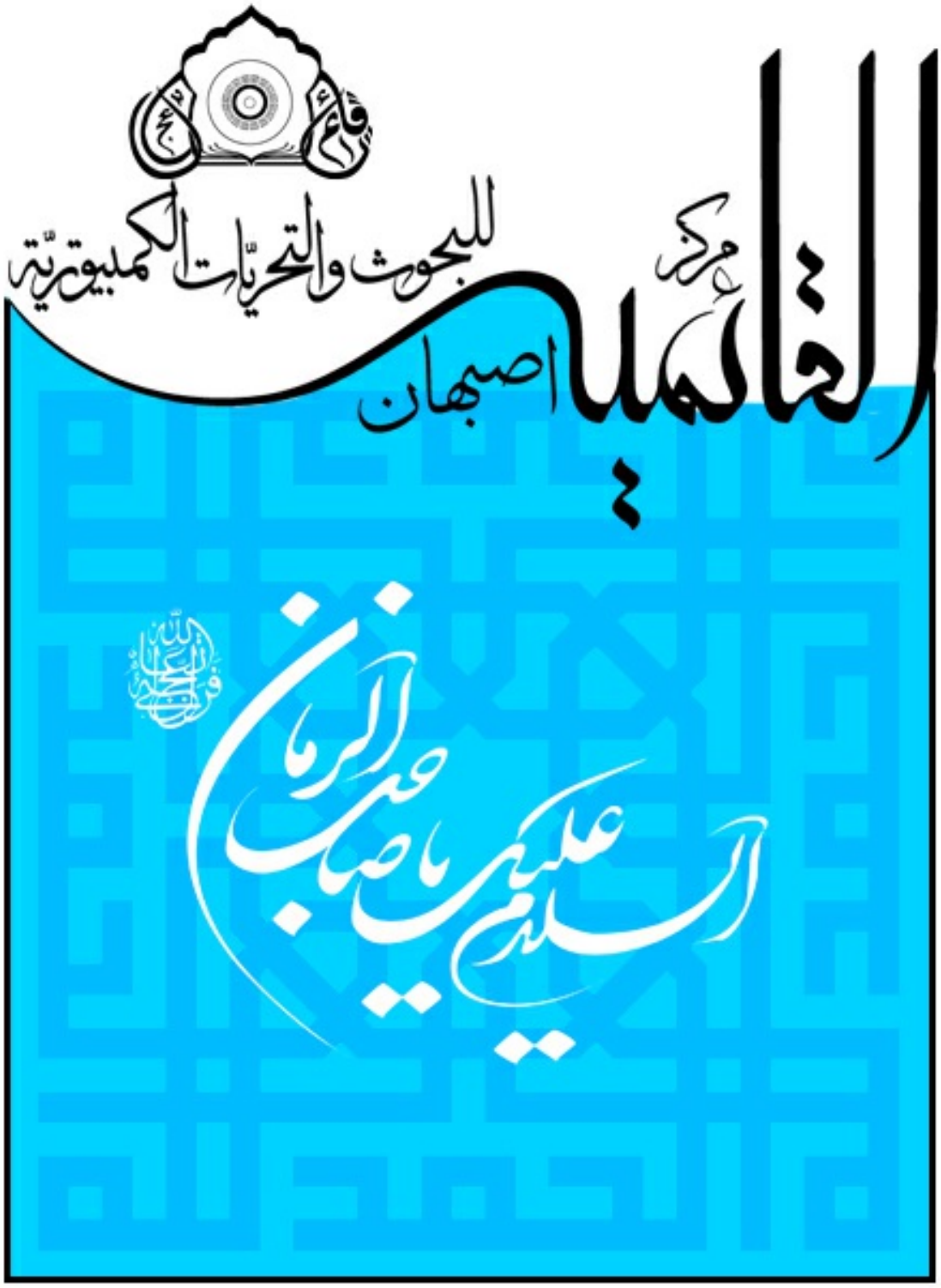

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الامام السجاد عليه السلام

علي زين العابدين

عبدالقادر احمد عطا

بسم الله الرحمن الرحیم

الامام السجاد على زين العابدين (عليه السلام)

كاتب:

عبدالقادر احمد عطا

نشرت فى الطباعة:

مجهول (بى جا ، بى نا)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

الامام السجاد علی زین العابدین (علیه السلام) ----- ۷

اشاره ----- ۷

مدخل البحث ----- ۷

اشاره ----- ۷

اصل التشیع ----- ۷

بعد الامام ----- ۹

بعد الامام الحسین ----- ۱۲

علی مفترق الطریق ----- ۱۸

رأس أهل الملامه ----- ۳۲

مواهب روحیه ----- ۴۹

عالم أهل البیت ----- ۵۸

مکانه السیاسی ----- ۶۴

مکانه الاجتماعی ----- ۸۴

الکریم الزهد ----- ۸۸

السجاد ----- ۱۰۱

آداب سلوکیه ----- ۱۰۹

ناس لا یصلحون للصداقه ----- ۱۰۹

لا تبالغ فی المدح ----- ۱۱۱

لا تصحب غیرک الا علی طاعه الله ----- ۱۱۲

من أدب العلماء ----- ۱۱۲

الفکر، و الاعتبار بالموت ----- ۱۱۶

مکانته فی التصوف ----- ۱۱۹

وفاته ----- ۱۳۳

الامام السجاد علی زین العابدین (علیه السلام)

اشاره

المؤلف: عبدالقادر أحمد عطا

طبع فی سنه: ۱۴۲۴ ق / ۲۰۰۴ م

الطبعه: الاولی

مدخل البحث

اشاره

لکی ندرک الوزن الحقیقی لشخصیه الامام السجاد علی زین العابدین بن الحسین بن علی بن أبی طالب رضی الله عنه، لابد من عرض و جیز لفکره التشیع و تطورها، و مدی انفعال الامام السجاد بها، و موقفه من تلک الفتنه العمیاء التی عمت کثیرا من أمصار الاسلام، و شملت مختلف وجوه النشاط الانسانی کلها، لأنه شخصیه معتبره من ثمرات تلک الحرکه العقیدیه و السیاسیه التی سیطرت و لا زالت تسیطر علی کثیر من البلدان و الثقافات. هو ثمره من ثمارها، ولکنه لیس ثمره مؤیده لما وصل الیه التشیع من غلو و خروج عن الواقع الی مستوی الأسطوره و الخرافه و التطرف الروحی الذی یعدو علی ظاهر الأحکام و القوانین العامه للاسلام، بل کان ثمره هادئه متعقله یحاول أن یعود بالمسلمین من الجماع الی الاعتدال، و من الغو الی التوسط، و من التطرف الروحی الی الخط الفاصل بین الماده و الروح، فلا یغرب فی الروحانیات حتی ینسی الواقع، و لا یفرق فی الماده حتی ینسی الروحیات.

اصل التشیع

أصله فی اللغه ما ذکره تقیروزابادی من أن «شیعه الرجل: أتباعه و أنصاره، و الفرقه علی حده، و یقع علی الواحد و الاثنین و الجمع، و المذکر و المؤنث، و قد غلب هذا الاسم علی کل من یتولی علیا و أهل بیته، حتی صار اسما خاصا لهم، و الجمع: أشیاع وشیع». فالشیعه هم: المؤمنون بحق علی رضی الله عنه فی الخلافه و الامامه، و فی تفضیله علی اخوانه من الصحابه، اما بالنص أو بالوصف، و فی اضفاء الحق الالهی علی الامام رضی الله عنه و علی حقوقه السیاسیه و الدینیه معا. و لقد کان للامام رضوان الله علیه منزله خاصه، فقد أسلم

صغيرا، و كان ختن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و ألصق الناس به، فتشرب روح الاسلام، و عاش ربيب النبوه الناهل من معينها، و كان خليفه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى أهله، كما كان له من الصفات الجسديه و جرأه القلب، [صفحه ۶] و شجاعه النفس ما يؤله بحق لنوع من العظمه الظاهره و الباطنه قل أن نجده فى انسان، و رأس ما يكون شخصيته العظيمه علمه الواسع العميق حتى اشتهر بفقه المعضلات فقيل فيه: «قضيه و لا أباحسن لها». و كذلك فتوته و فروسيته الفائقه مع تركه الدنيا لأهلها، و هيامه بالمثل الأعلى حتى أجمعوا على أنه «لافتى الا على، و لا سيف الا ذوالفقار». أما بدايه التشيع فقد وقع الخلاف فيها بين مفكرى المسلمين. فهناك اجماع على أن الحقل العام الذى نبتت فيه الفكره يمتد من بدايه الاسلام الى ما بعد مقتل الامام مباشره. فمن قائل ان التشيع ظهر فى حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، اذ كان لعلى آنذاك مريدون روجيون باعتباره لازم الرسول فى اوائل الدعوه، و عاصر الحركه الروحيه الهائله التى انبثقت مع الدعوه فى قلب النبى عليه الصلاه و السلام و من القائلين عدا أحمد أمين، و أما ابن خلدون فيرى فى كتابه «العبر» أن التشيع قد حدث بعد وفاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و من قائل يقول: ان التشيع قد ظهر مقابلا لحركه الخوراج، و ابن النديم يقول: انه ظهر حينما أطلق بنفسه هذا الاسم على جيشه الذى حارب به طلحه و الزبير. أما الدكتور طه حسين فيرى أنه نشأ بعد قتل الامام. و

على أی حال فالتشیع باعتباره مذهب روحیا کان معاصرا لحیاه النبی صلی الله علیه و سلم، أما باعتباره مذهبا سیاسیا فنحن نری أنه نشأ مع ولایه الامام للخلافه، و ان کان لم یتسع و یتبلور الا بعد قتله. و ذلک لأ التشیع الروحی للامام کان واضحا فی سیره سلمان الفارسی، و أبی ذرالغفاری، و عمار بن یاسر، و المقداد بن الأسود، و کما یؤکد الیعقوبی قد تطور التشیع بأنه قد «تخلف عن بیعه أبی بکر قوم من المهاجرین و مالوا مع علی بن أبی طالب، منهم: العباسی بن عبدالمطلب، و الفضل بن العباس، و الزبیر بن العوام، و خالد بن سعید، و المقداد بن الأسود، و سلمان، و أبوذر، و عمار، و البراء بن عازب، و أبی بن کعب».

بعد الامام

کان الامام قد لمس تدهور المثل الأعلی الاسلامی، و تحوله الی المصلحه الشخصیه فقال فی أسی و حسره کما جاء فی نهج البلاغه: «ألا و ان بلیتکم قد عادت کهیئتها یوم بعث الله نبیکم». [صفحه ۷] و لا شک أن من کانوا حول الامام قد شعروا بآلامه و حسراته علی تدهور معنویاتهم، و نماء مادیاتهم، أو بمعنی أوضح علی عدم التوافق بین قوتهم و جرأتهم و بین ما یهدفون الیه من تحقیق المثل الأعلی، و ذلک حین اندفعوا بتیار قوی الی التخازل، و کتاب نهج البلاغه ملی ء بما یصور ذلک الموقف الصعب الذی وقفه الامام من شیعته. و قتل الامام، وانتصر الطرف المقابل بزعامه معاویه انتصارا کاملا فی الحقل السیاسی. و ازدادت حسره الشیعه بتنازل الامام الحسن عن الخلافه عام۴۱ ه حقنا للدماء، و ایثار الآن یتبنی آل البیت النبوی کل المثل الاسلامیه التی أسسها جدهم العظیم، و التی

توشک أن تهدد تحت وطأه الأهواء الصارخه، و الفتنه العاصفه. و فی نفس الوقت کان معاویه رضی الله عنه یؤسس ملکه علی خط معاکس، فکان کما یروی الطبری یأمر ولاته «ألا یجیزوا لأحد من شیعه علی و لا أهل بیته شهاده». کما أن «بحرمان من عرف بموالاه علی من العطاء، و اسقاطه من الدیوان و التنکیل به، و احراق داره» کما روی ابن أبی الحدید. و شاع لعن علی و أهل بیته علی المنابر فی صلوات الجمع علی رءوس الأشهاد، و کان الهدف من هذا العمل المجانب للصواب کما یقول ابن أبی الحدید «أن یربی علیه الصغیر، و یهرم علیه الکبیر، و لا یذکر له ذاکر فضلا». و نجح معاویه فی اقناع أهل الشام بأحقیه الامام باللعن، حتی لقد رفض أهل حران الکف عن لعن الامام حین أمرهم عمر بن عبدالعزیز بالکف عنه و قالوا: «لا صلاه الا بلعن أبی تراب». و کان الکثیرون یرون أن أباتراب هذا هو «لص من لصوص الفتن». و الحق أنه اسم أطلق النبی صلی الله علیه و سلم. کان معاویه یبذل جهدا کبیرا فی تشویه سیره الامام، حتی أنه أعطی «سمره بن جندب» نائب زیاد علی البصره أربعمائه ألف درهم لیروی للناس أن علیا هو المقصود بقوله تعالی: (و من الناس من یعجبک قوله فی الحیاه الدنیا و یشهد الله علی ما فی قلبه و هو ألد الخصام (۲۰۴) و اذا تولی سعی فی الأرض لیفسد فیها و یهلک الحرث و النسل و الله لا یحب الفساد (۲۰۵))[البقره، ۲۰۴، ۲۰۵]و أن قائل الامام هو المعنی بقوله تعالی: (و من الناس من یشری نفسه ابتغاء مرضات الله)[البقره:۲۰۷]. [صفحه ۸] و بدأ معاویه خطه الاضطهاد

فی العراق بقتل حجر بن عدی الکندی، و عمرو بن الحمق الخزاعی، باعبارهما من کبار أصحاب الامام، و قتل معهما سته من أعوان حجر و دفن أحدهم حیا، و هو عبدالرحمن بن حسان کما یقول المسعودی فی مروج الذهب. و کان هذا العمل مثارا للفزع و القلق و الشائعات و الخرافات و الأساطیر فی جو الکوفه، و نسجت أساطیر عجیبه حول میثم التمار، و رشید الهجری بغیه تصویر الامام بصوره روحیه بحته، و نسبت الیه تنبؤات عن مقتل أصحابه، بل و تؤکد أن الامام لم یمت، و أنه أجز بأشیاء بعد ما ظن الناس أنه مات، بینما کان کما روی الذهبی فی تذکره الحفاظ عن رشید الهجری «یتنفس بنفس حی، و یعرق من الدثار الثقیل». بل ان بعضهم قال: ان کان بعد موته «یلمع فی الظلام کما یلمع السیف الصقیل». و نحن لا نذهب بعیدا فی مسأله لعن الامام کما ذهب بعض أهل الغیره الشدیده اذ قالوا قول الدکتور کامل مصطفی الشیبی فی کتابه «الصله بین التصوف و التشیع» ان لعن علی کان استمرارا لرغبه دفینه فی لعن النبی نفسه باعتباره عدو بنی أمیه الذی هدم أرستقراطیتهم الجاهلیه، و انما نقول: ان معاویه مازال مسلما مخلصا للاسلام، ولکنه لم یکن مؤمنا بمبدأ المساواه بین المسلمین، بل کان یری أن أرستقراطیه العرب الجاهلیه المتمثله فی بنی أمیه یجب أن تتحول الی أرستقراطیه عربیه أمویه اسلامیه. فکل تاریخه یشیر الی حبه للارستقراطیه، و آیه ذلک کله ما کان علیه حکمه من مباینه للمساواه بین الخلیفه و الشعب الا فی صدد السمع و الطاعه حسب. هی رغبه فی الحکم، و شعور بالحق فیه، و هو جامح فی صبغ الخلافه بلون

من الأبهه و الارستقراطيه، و لا شی ء غير ذلك أما الكفر الدفين، و الرغبه فی هدم الاسلام فلا، و ألف لا، و فی حب الرئاسه يكمن الداء، و يكمن اللدد و الخصومه و اراقه الدم، فهذا شی ء معروف غير منكور عند أولی الرأی، و فی مراجع التاريخ.

بعد الامام الحسين

خرج الامام الحسين استحابه لنداء ضميره أولا، و استنقاذا للاسلام الذی تتفلت مبادئه و مثله العليا يوما بعد يوم، ثم استجابه لنداء أهل الكوفه الذين دعوه للخروج معه، ولكن التخاذل كان قد بلغ مداه بأهل الكوفه، فلم يستطيعوا أن يقاوموا اعزاء المال المبذول، فقتل الامام الحسين، و قتل معه ولده علی الأكبر، و ثلاثه من أبناء الامام الحسن، [صفحه ۹] و خمسه من اخوته، و اثنان من ولد جعفر بن أبی طالب، و اثنان من أولاد عقيل بن أبی طالب و عدد كبير من أعوانه و قتل داعيته بالكوفه مسلم ابن عقيل، و الزعيم الكوفی هانی ء بن عروه، و لم يجد من الكوفيين الا شللا و خذلانا كما يقول المسعودی، و كما يؤكد أن كل من حاربه كانوا من أهل الكوفه، و لم يحضره شامی واحد. لم يفلت من آل بيت الحسين سوی ولده علی زين العابدين الذی كان مريضا و كاد عبيدالله بن زياد يقتله لولا ضعفه، فالحسينيون جميعا من ذريته، و حسن بن الحسن و له ذريه، و أخوه عمر و لا عقب له، و القاسم بن عبدالله بن جعفر، و محمد بن عقيل، كما يقول الذهبی فی سير الأعلام. و انخذل الشيعه مره أخری، واضطربت أحوالهم بين المثل الأعلی الذی يتمنونه، و القوی النفسيه و البدنيه التی تخونهم كلی حزب الأمر، فلجأوا الی الأسطوره يزيدون من محصولها،

و يعللون بها نفوسهم، و استغلوا الأحاديث الوارده فى فضل الحسين، وزادوا عليها من الأساطير شيئا كثيرا. فقد أورد الكلينى فى أصول الكافى عن جعفر الصادق أن قوله تعالى: (فنظر نظره فى النجوم (٨٨) فقال انى سقيم (٨٩))[الصافات:٨٨، ٨٩]ينصرف الى الحسين. فقد رآى ما يحل بالحسين فقال: انى سقيم. كما روى، أنه لما كان من أمر الحسين ما كان ضجت الملائكه الى الله بالبكاء و قالت: هكذا يفعل بالحسين صفيك و ابن نبيك؟ قال: فأقام لهم ظل القائم و قال: بهذا أنتقم لهذا. و القائم هو «المهدى» كما هو معلوم فى عرف الشيعه. و هكذا تنمو الأسطوره فى جو الهزيمه و الخذلان كما تنمو فى جو الجهل و الظلام العقلى تماما. ثم كانت حركه التوابين هى الصدى العملى الحزين لقتل الامام الحسين، و كان زعماؤهم خمسه هم: سليمان بن صرد الخزاعى، و المسيب بن نجبه الغزارى، و عبدالله بن سعيد بن نفيل الأزدى، و عبدالله بن وال التميمى، و رفاعه ابن شداد البجلى، و لم يكن هؤلاء التوابون يريدون شيئا سوى الانتحار فى ميدان الحرب تكفيرا عن تخاذلهم فى نصره الحسين، و كانوا يستندون فى حركتهم الى قوله تعالى: (فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم). وانضم اليهم جمع من أهل البصره و المدائن يرددون: (أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا). و خرجوا دون قياده منظمه لمجرد التكفير عن الخطأ ببذل النفس، و لذلك لم يستطع المختار الثقفى أن يضم هؤلاء التوابين [صفحه ١٠] الى جيشه الذى كان يعده للخروج على الأمويين لأنهم يختلفون معه فى الهدف من الخروج. فى تلك الفتره من التاريخ خرج عبدالله بن الزبير، و أخذ البيعه لنفسه

بمکه، و حاضر محمد بن الحنفیه الذی یعتبر صدیا فی نظر الشیعه، و کان حصاره فی نفس الشعب الذی حوصر فیه بنوهاشم فی أول ظهور الاسلام، و ظهر المختار بن عبیدالله الثقفی ثائرا علی بنی أمیه، و مطالبا بثأر الحسین، و دعا الی امامه محمد بن الحنفیه، ولکن محمد بن الحنفیه کان قد رأی اندفاع المسلمین وراء الانحراف العقیدی الی القول بتألیه الأئمه و الی أساطیر أخری لها بالغ الخطر علی عقیده الاسلام، فنادی قائلا: «انا لله، ما ورثنا من رسول الله صلی الله علیه و سلم الا ما بین هدین اللوحین» یعنی القرآن. کانت حرکه المختار تقترن بخرافات یروجها أنصاره، و یروی ابن حزم أنهم کانوا یقولون: ان الملائکه تنزل علی صور الحمامات البیض لتنصرهم. کما نسب الی المختار نفسه دعوی النبوه، و القول بالبداء، أی: ان الله کان قد وعده بالنصر، ثم بداله تأجیله الی حین. و کما شاعت المهدیه مقترنه بحیاه محمد بن الحنفیه برزت فکره الرجعه، فلم یر أصحابه أنه قدمات، و انما أکدوا أنه یتحین الفرصه للظهور بالسیف باعتباره مهدیا، و قد أجمع علی ذلک الکثیرون من أصحاب کتب الفرق، و فیها السید الحمیری شاعر الکیسانیه: لو غاب عنا عمر نوح أیقنت منا النفوس بأنه سیؤوب و هکذا انسحبت الرجعه و المهدیه علی غیر ابن الحنفیه حتی شکلت نوعا من الاضطراب العقیدی خلط بین عقائد الیهود و المسیحیین و المسلمین فی صوره لا زال المسلمون الآن یحلمون بها. بعد ثلاثه عشر قرنا من میلادها، کما تطورت فکره الرجعه المقترنه بالمهدیه فأصبحت علی أیدی الکیسانیه تشمل علی بن أبی طالب نفسه، و انتهت الی قول «المجلس» بأن الله یحشر فی زمن القائم أو بعده جماعه

من المؤمنين لتقر أعينهم برؤيه أئمتهم، و جماعه من الكافرين و المخالفين للانتقام منهم، و هى أحلام اليقظه تعلل الفاشلين كما تعلل الأم طفلها الباكى بمجد و عطايا أسطوريه. و تلك أقوال لا نجد لها أصلا فى الاسلام الا عن طريق التأويل الفاسد الذى آمن به [صفحه ۱۱] مجتمع الشيعه من قبل و من بعد، حتى وصل بهم التأويل الى اخفاء الحقائق الشرعيه تحت ستار التأويل المعروف لديهم بالباطن. و هكذا اضطربت أحوال المسلمين، و غرتهم أفكار دخيله، و روجت السريه لأن يعتنق الكثيرون من العامه تلك الأفكار الدخيله، و تطورت تلك الأفكار، فيما بعد على يد بيان بن سمعان، و المغيره بن سعيد البجلى، و أبى منصور العجلى، و أبى الخطاب الأسدى، و غيرهم الى الكفر الصريح، و أدعاء حلول الله تعالى فى أجساد الدعاه، و دعوى النبوه، كما كانت فكره تجديد الاسلام كل مائه عام على يد قائم مشهود لهذا الغرض من آثار الفكر الشيعى المنحرف الذى لا زال يؤمن به جماعه غير قليله من غلاه المتصوفه و منحرفيهم. و قد نسبها القائلون بها الى أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفيه حيث قال موجها خطابه الى محمد بن على ابن عبدالله بن عباس: «لم تمض مائه سنه من نبوه قط الا انتهت أمورها، لقوله عزوجل (أو كالذى مر على قريه و هى خاويه على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائه عام ثم بعثه)[البقره:۲۵۹]، فاذا دخلت سنه مائه فابعث رسلك و دعائك، فان الله متمم أمرك» و قد انتهز أعداء الاسلام من الاسماعيليه هذه الفكره فوقتوا انتهاء النبوه نفسها بمائه سنه. بل ان الغلاه قد هدموا بهذه الفكره ختام النبى

صلی الله علیه و سلم للنبوه و الرساله، و جهر بذلک أبومنصور العجلی المقتول عام۱۲۱ من الهجره اذ قال کما روی صاحب فرق الشیعه: «کان علی بن أبی طالب نبیا و رسولا، و کذلک الحسن و الحسین، و علی بن الحسین، و محمد بن علی» ثم یقول: «و أنا نبی، و النبوه فی سته من ولدی، و یکونون من بعدی أنبیاء آخرهم القائم». کان هناک غلو و اغراق فی حب آل علی رضی الله عنه من جانب الشیعه و کان هناک غلو و اغراق فی الانتقام ممن یوالی علیا من جانب حکام بنی أمیه، و لقد استبیحت المدینه المنوره بعد مقتل الحسین ثلاثه أیام فی وقعه الحره: أموالها، و دماء أهلها و أعراضهم، و اشتدت کراهیه الناس لیزید، و کثر الخارجون علی نظام الحکم، و ضربت فی مواجهه ذلک کله الکعبه بالمجانیق، و بدأت حضاره الاسلام الممثله فی قوانینه و مثله العلیا تتدهور تحت وطأه جبابره بنی أمیه، و أصبح الاسلام فی المرتبه الثانیه بعد توطید الحکم الذی اعتبر فی الدرجه الأولی، و فی سبیل توطید الحکم کان الحجاج یخبر المنهزمین من جیش ابن الأشعث بین القتل و البراءه من الاسلام و الایمان، کما کان عمال [صفحه ۱۲] الأمویین یحولون دون اعتناق الفرس للاسلام بجبایتهم الجزیه منهم بعد اسلامهم، و لا سیما أهل خراسان منهم. لقد استذل المسلمون، و استهین بأقدار الاسلام حتی لقد بعث أحد الخراسانیین کما روی ابن سعد الی محمد بن الحنفیه یقول: «فما زال بنا الشین فی حبکم حتی ضربت علیه الأعناق، و أبطلت الشهادات، و شردنا فی البلاد، و أوذینا حتی لقد هممت أن أذهب فی الأرض قفرافأ عبدالله حتی ألقاه». و وبخ عبدالرحمن

بن أبی نعیم و هو من زهاد البصره أهل العراق قائلا: «یا أهل العراق، تسألوننی عن المجرم یقتل الصید و قد قتلتم ابن بنت رسول الله صلی الله علیه و سلم و قد قال رسول الله فیه و فی أخیه: هی ریحانتای من الدنیا»؟ و ترک أبوعثمان النهدی الکوفه و قال: «لا أسکن بلدا قتل فیه ابن بنت رسول الله صلی الله علیه و سلم». و نهج هذا النهج خلائق کثیرون من الزهاد و العباد هاموا فی البراری علی غیر هدی. و هکذا تتمزق وحده العالم الاسلامی، و یحار وسط هذا التمزق قوم مؤمنون حکماء، فلا یدرون من أمرهم رشدا یهدیهم الی أفضل الوسائل للحفاظ علی ایمانهم، و للعمل علی اعاده الوحده و الوئام بین أبناء الدین الواحد. فما کان هناک الا الغلو فی الحب، و استغلال الحاقدین علی الاسلام لهذا الغلو فی الحب، و العمل علی نمائه بعقائد سریه قصاراها القضاء علی أصل العقیده فی الاسلام، و کان هناک مخلصون لم یستطیعوا الجهر برأیهم، فالسیوف مصلته، و الأحقاد ملتهبه فی صدور الحکام، و لذلک آثروا الانزواء و الانسحاب فی موجه من الزهد السلبی و البکاء علی مجد غابر. و کان هناک خارجون علی الحکم هنا و هناک، منهم من یستغل ثأر الحسین فی سبیل الحصول علی مکاسب دنیویه من الولایه أو الاماره أو مجرد الزعامه الفکریه، و منهم من عمل لنفسه طامعا فی الحکم بحجه انحراف بنی أمیه عن سنن الاسلام، و منهم من کان عدو للاسلام کله، فما أراد بخروجه الا البلبله و الاضطراب و القضاء علی وحده الفکر و وحده القیاده. و کانت المنابر تدوی کل جمعه بلعن صحابی عظیم هو الامام علی، و بلعن ذریته

الـذين هم أبناء الزهراء رضوان الله تعالى عليها، و كان هناك البقيه الباقيه من بنى الزهراء [صـفحه ۱۳] تتجه اليهم الأنظار، فلعل الله يحدث على أيديهم أمرا يخرجهم من هذا الذل المضروب على رقابهم، و يخرج الاسلام من محنته القاسيه، و لم تكن الأنظار تتجه الاـ الى الفرع البـاقى من شـجره الامام الحسـين المباركه «على زين العابـدين» الامام السـجاد، أما أبناء مولانا الحسن الـذين أفلتوا من القتـل فقـد آثروا البعـد عن المعركه كلهـا. و فى هـذا الجو الخـانق الباكى عاش الامام زين العابـدين، يحمل تبعه هائله يحار فى موجها العاتى أعظم الناس جرأه، و أبيهم لسانا، ولكن العنايه كلأته فعاش حميدا، و مات حميدا يتوج التاريخ بسيره من أزكى السير، و منهاج فى الفتن يتخذه المسلم من أشد المناهج دلالته على ألمعيه و ايمان عميق. و وعى ذكى يخدم الاسلام من خلال السـلم و الأمان و السلوك النموذجى الذى يعتبر أبلغ من كل كلام، و أجدى من كل سيف. العبد الفقير الى الله عبدالقادر أحد عطا [صفحه ۱۴]

على مفترق الطريق

قبـل أن نتحـدث عن موقف الامـام زين العابـدين من فتنه العصـر يحسن أن نعرض لجزء هـام من عناصـر حياته هو عامل الوراثه الذى يكون ميوله و أحاسيسه و وعيه النفسى و الروحى جميعا. أما أبوه فالامام الحسين بن على رضى الله عنه، و هو الذى قال فيه رسـول الله صـلى الله عليـه و سـلم و فى أخيـه الحسن: «همـا ريحانتـاى من الـدنيا». و فى حـديث أبى سـعيد الخـدرى: «الحسن و الحسـين سـيدا شـباب أهل الجنه». و روى فيه الترمذى قوله صـلى الله عليه و سـلم. «حسـين منى، و أنا من الحسـين، أحب الله من أحب حسينا». و هو الذى

كان النبى صلى الله عليه و سلم يحبه فلا يزعجه اذا صعد على ظهره و هو يصلى، بل يصبر حتى ينزل ثم يعتدل من سجوده، ورآه مقبلا و هو على المنبر فنزل فرفعه و أجلسه الى جواره. و جده لأبيه هو الامام على بن أبى طالب، أول مسلم من الصبيان، أسلم و سنه عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثه النبى صلى الله عليه و سلم، و بعد اسلام خديجه مباشره، و لم يعبد صنما قط، و كان ربيب النبى عليه الصلاه و السلام، و أقرب الناس اليه، و خليفته على ودائعه، و ختنه و أباعقبه، و صاحب لوائه، و خليفته فى أهله، و أخى النبى صلى الله عليه و سلم بين نفسه و بين على و قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه». أما جدته لأبيه فهى سيده نساء الجنه فاطمه الزهراء ابنه النبى صلى الله عليه و سلم، و أمها خديجه بنت خويلد شرف نساء العرب و العجم، و شرف العقل الراحج و الأدب الوفير، و الوفاء النادر، و الأمومه الفياضه. و كفى بالزهراء أنها كانت أشبه الناس هيأه و مشيه بأبيها، و أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يهش للقائها و يقوم، ثم يبسط لها رداءه الشريف، و أنها البقيه الصالحه التى كان منها أهل البيت النبوى الرفيع. و أم الامام زين العابدين هى الأميره «شهربانو» ابنه يزدجرد آخر ملوك الفرس، و يروى [صفحه ١٥] ابن سعد فى طبقاته أن اسمها العربى «غزاله»، و يرى النوبختى أن اسمها «سلافه»، و كانت قبل أن تسلم تسمى «جهانشاه». هو اذن من الوجهه الوراثيه يرث خلاصه الروح العربيه فى

أرقى و أسمى مدارجها و سماتها العاليه من الأخلاق و الذكاء و الطهاره و العقل و الاحساس المرهف، و الفتوه العربيه الاسلاميه، و الشهامه و النجده و الايمان و اليقين. كما يرث خلاصه الاحساس الفارس و شمول الفن الأدبى الرفيع، و سمات السياده الرزينه و الخيال الجميل. هو اذن خلاصه العمق فى الخيال الأدبى من فارس ممتزجا بالصدق و العمق من بنى هاشم، و ملتقى السياده من بيت النبوه العربى و بيت آل ساسان الفارسى. أى انه كان ملتقى السياده الروحيه و الزمنيه جميعا. و ليس بعد ذلك من عز و لا مجد و لا فخر و لا سياده و لا شرف فى موازين الرجال. فاذا أضفنا الى تلك العناصر الوراثيه أنه عاصر جده الامام و هو رضيع حتى بلغ سنتين من العمر، و أشرف أبوه الامام الحسين على تربيته طفلا و يافعا و شابا حتى جاوز العشرين من العمر، رأينا كيف أنه نشأ على خلائق من بيت النبوه قوامها و التواضع فى السياده، و العلم، و الكرم، و الأدب الرفيع، و الفهم الصحيح الواعى لمثل الاسلام و أهدافه، فلا يجنح به الخيال، و لا يحد من عزمه اضطهاد، و لا تعريه الدنيا بزهرتها و بريقها، و انما هو بحكم الوراثه و المنبت انسان يرى الحق من حيث لا يراه أهل الهوى، و يدرك المسئوليه من حيث يدرك غيره نفس المسئوليه ولكن نحو نفسه التى لصقت بالأرض فلا ترى مجد الا على ثراها، و لا مثل أعلى الا ما كان منها من نال و جاه. هو رجل ينظر الى السماء يحقق فيها مجده؛ بينما غيره ينظر الى الأرض يحقق فيها جاهه، فتحقق مجد السجاد فى الأرض

و فی السماء، و فشل غیره فی تحقیق مجد الأرض و لم یظفر بشی ء من السماء. شهد بعینیه و هو مریض تساقط اخوته و نبی عمومته بسیوف البغی علی أرض کربلاء، ثم شهد سقوط أبیه سیدالشهداء فی معرکه الفداء بعد جوله بطولیه نادره، و من قبل کان قد سمع باغتیال جده الامام و هو یعمل جاهدا لتصحیح خطوات المسلمین علی الطریق، و حمل أسیرا مع الأسری من نساء بیت النبوه و من بقی من فتیانه الساده المغاویر، و شهد الخلاف بین ابن زیاد و من حوله علی قتله، و أخیرا لم ینس قط أنه کان [صفحه ۱۶] مطمعا من مطامع هواه المال فی أسره، اذ أخفاه رجل عن القائد الأموی کما یقول ابن سعد، ثم سلمه الی ابن زیاد نظیر ثلاثمائه درهم، و کان هذا الرجل مع ذلک یبکی. و علام یبکی الرجل؟ و لماذا أخفاه لیسلمه بنفسه، و کیف یتفق البکاء علی تلک الفعله الشنعاء مع الرغبه فی العطاء المدخول؟ انه الفکر المزدوج الذی أصیب به المسلمون فی عصر بنی أمیه، الفکر الذی یؤمن بمبدأ و بنقیضه فی الوقت نفسه، و تلک بلیه البلایا فی موازین السیاسه و الاجتماع علی السواء. فهم یحبون آل البیت، و یعرفون أقدارهم و منازلهم من رسول الله صلی الله علیه و سلم، و یدرکون مدی ما ینصب علیهم من غضب الله لایذائهم و الاساءه الیهم، هم یعرفون ذلک و یکنونه فی صدورهم، و هم فی الوقت نفسه واقعون تحت سلطان النبوی، مستجیبون لنزوات النفس، راغبون فی المال لتحقیق أطماعها، و اسکات زئیر الشهوات فی أعماقها، فهم لذلک یعملون بکلا الوجهین، البکاء علی مصیر آل البیت النبوی، و علی الضحیه التی قبض

عليها هذا الرجل - و أمثاله كثيرون من أعز بيت النبوه رجلا - و على نفسه التى لا ترحمه و لا تعفيه من تبعاتها حتى يأتى هذا الجرم المنكر الشنيع. لقد قال الناس قبل ذلك لجده: «قلوبنا معك، و سيوفنا عليك». و هذا أصدق تصوير للفكر المزدوج الذى تسلط على الناس فى عصر بنى أميه فهدد تفكيرهم، وهدد حضارتهم، وهدد تاريخهم كله على مدى العصور. و هكذا امتد تأثير الفكر المزدوج حتى شمل أولى الأمر و هم يستبيحون المدينه ثلاثه أيام، مالا و عرضا و دما فى وقعه الحره، بما لم يحدث له نظير الا بين أنباء الغاب، و شمل أهل الفكر فى ذلك العصر و فيما بعده فقالوا: لا ضير على الدوله من قتل الحسين و أهل بيته، فالفتوح الاسلاميه قد امتدت شرقا و غربا، و قد أعز بنوأميه الاسلام و لم يذلوا رقاب المسلمين. تلك أفكار شاعت فى العصر، ورددها رجال من عصرنا الحاضر، و قبل أن نفحص سلوك الامام زين العابدين ازاءها نرى أن نقيم هذه الفكره حتى ندرك جوانب العظمه الفكريه البريئه من الازدواج لدى الامام السجاد. و تتلخص قضيه الحق فى تاريخ بنى أميه فى: الارستقراطيه القرشيه المنهاره، و الرغبه الجامحه فى احيائها تحت ظلال الاسلام، و وسائل الاعلام المجنده فى هذا السبيل. [صفحه ١٧] أما ارستقراطيه بنى أميه فقد انهارت بالفعل حينما أسلم زعيمها أبوسفيان والد معاويه، و أصبح فردا عاملا فى نطاق الاسلام العام الذى يقيس أقدار الناس بمقاييس تختلف عن تلك المقاييس الجاهليه التى كمنت الى حين فى أعماق أبى سفيان و أهل بيته، و أصبحت السياده بمعناها الاسلامى الأصيل الذى ينآى عن حب السيطره على الغير، و عن حشد الجموع فى سبيل

الجاه الأرض الفارغ، بل انما العزه ممنوحه من الله، و لا قوام لها الا الايمان و انكار الـذات، و هو ما لم يتـدرب عليه الأمويون، أو كان عسـيرا على نفوسـهم آنذاك فلا تلين له الا بعد أجيال من التدريب. فما ان حانت الفرصه بولايه عثمان حتى أطلت الأطماع من مكامنهـا، و لم يكن ممكنـا أبـدا أن يتخلى الاسـلام عن مكـانه لتحـل محله الجـاهليه الأـولى التى يسـهل على هواه الجاه أن يصـعدوا على أشـلائها، فليكن الاسلام، وليكن الجاه تحت سلطانه، ولتكن الأرستقراطيه على أساس من عقيده الاسلام التى ثبتت تجربتها فى تأسـيس أمجاد ضخمه لآل بيت النبى صلى الله عليه و سلم و للمتفوقين فيها من غيرهم، و التى قبلتها القلوب و العقول فلم يعـد من الممكن التخلى عنهـا أو القضـاء عليها. و حينما تصـطدم أرسـتقراطيه بنى أميه بانسان متفوق، أو بمبـدأ من مبادى ء الاسـلام، فمن الهين على وسائل الاعلام تشويه ذلك الانسان، و تأويل ذلك المبـدأ بما يخـدم المصـلحه الأمويه أولا و أخيرا، و جماع الأسانيد التى تدعم ذلك المجد المصنوع هو السيف أولا و أخيرا. وليكن هنالك فتوح باسم الاسلام، فذلك شى ء يخدم أمجاد الأمويين و يخدم الاسلام نفسه، فلا ضير عليهم من اتساع الفتوح، لأنها مجالات للطامحين و هواه المجد من العرب جميعا. فلئن كان الاسـلام يحتم انكار الـذات، و يوجه كل الطاقات نحو خـدمه المبدأ و العقيده و المثل الأعلى، و اعتبار القدوه الحسـنه من أخلاق الاسـلام عاملا من عوامل الفتح و اقناع الأمم المغلوبه بالعدل الاسـلامى المبسوط على الجميع دون تفرقه بين عربى و لا عجمى، و لا عظيم و لا صعلوك، فان الدوله الأمويه اعتبرت الاسلام وسيله من وسائل خدمه الذات

فی مجال المجد و المال، و بعثت عصبیه القبیله من جدثها، و أحیت العنصریه من رقادها، حتی لقد أخذوا الجزیه من مسلمی الفرس و لا- سیما خراسان، و لم تتورع سیوفهم عن الاطاحه بأغلی الرقاب و أعزها علی کل قلب مؤمن، و لم تتورع وسائل اعلامهم عن تشویه أعظم [صفحه ۱۸] الشخصیات بلاء فی بناء الاسلام من صحابه النبی صلی الله علیه و سلم. اسلام فی ناحیه، و قتل لرجاله المخلصین، و سیوف تجتاح رقاب آل بیت النبی، و نشویه لمثله العلیا من جهه أخری. فتوحات باسم الاسلام من جهه، و قدوه سیئه تنفر المغلوبین من الاسلام من جهه ثانیه، و عشرات من رجال القدوه الحسنه المنکرین لذواتهم، و المنادین بالمبادی ء الساميه، و الکاشفین عن وجه الاسلام الرحیم العادل یلقون حتفهم علی ید سفاح بنی أمیه الحجاج بن یوسف، معلم الصبیان الذی لمع نجمه علی البغی و الطغیان و التنکر للقیم الانسانیه فی أبسط مظاهرها، و الذی تفوح من نسبه و خلائق أمه ریح الغدر و التنکر للشرف. فهل یمکن القول بأن بنی أمیه خدموا الاسلام؟ و بأنهم لم یذلوه باذلال المخلصین من رجاله و من سلاله نبی الله لأنهم سیروا الجیوش شرقا و غربا باسم الاسلام؟ لا یقول بهذا القول الا مریض بازدواج الفکر هو الآخر، بحیث یفصل بین الاسلام من حیث هو عقیده، و بین الاسلام من حیث مثل أعلی واجب التطبیق، و ما ازدواج الفکر الا مرض عقلی فی عرف الطب، لا معتمد علی رأی المصاب به بأی حال. أما أصحاب الطریق السوی فی التفکیر فانهم یؤکدون أن بنی أمیه جنوا علی الاسلام، و أذلوا المسلمین، و أذلوا عظماء الرجال، و أذلوا آل بیت

النبی صلی الله علیه و سلم لیفسحوا لأنفسهم طریقا الی الارستقراطیه القدیمه التی بعثت علی صوره أخری غیر الصوره الجاهلیه الأولی فی الشکل العام، و ان کانت تتسم ببعض السمات الجاهلیه فی غیر العقیده کالتعصب القبلی، و اثاره المسلمین بعضهم علی بعض، و الباس الباطل صوره الحق و الاستمساک به، الی آخر تلک الخلائق الأمویه المعروفه للجمیع فی التاریخ. شهد زین العابدین هذه المأساه هو بفصولها کلها، و رأی من حوله أقواما یحبون آل بیت النبی صلی الله علیه و سلم، و یتشیعون لهم عصبیه بلغت ذروتها عاطفیا حتی جمحت بهم الی الباطل الصریح، و کان قد اندس بین الشیعه أقوام حاقدون علی الاسلام دسوا لهم بعض التأویلات الفاسده التی تصنع آل البیت فی غیر مواضعهم من البشر، و انساق الشیعه وراء تلک التأویلات، ففسدت عقائدهم، و أساءوا الی أهل البیت من حیث یحسبون أنهم یحسنون الصنیع. [صفحه ۱۹] لقد انحرف الأمویون المعادون لآل البیت و لغیرهم من ینقد سیاستهم، و انحرف المحبون لآل البیت کذلک، فماذا کان موقف الامام زین العابدین؟ کان موقفه نابعا من الاسلام نفسه، بحیث کانت حیاته هی حیاه الاسلام الذی دعا الیه جده الأعلی صلوات الله علیه و سلامه وسط تلک الفتنه العمیاء التی کادت تقضی علیه قضاء مبرما. کان مسالما للأمویین، فلم تعد نجد الثوره بالسیف علی الطغیان السائد، من حیث تجدی الثوره التی یتضمنها احیاء المثل الأخلاقی الأعلی للاسلام، و افساح الطریق لهذا المثل الأعلی باصطناع المسالمه للحاکم المتعطش للدم، و بذلک استطاع الامام أن یتقی شرور الأمویین، بل و یکتسب حبهم، و فی الوقت نفسه یجعل من أخلاقه مثلا عملیا مشهودا یلتف حوله أنصار الاسلام الخالص من کل دخیل

و يقمع باطل بنى أميه بلسان الحال. و قد شهد الامام الزهرى بنجاح الامام زين العابدين فى هذا المضمار فقال فيما رواه الذهبى: «كان من أفضل أهل بيته، و أحسنهم طاعه، و أحبهم الى عبدالملك بن مروان». و فى الوقت نفسه أعلن ضلال الشيعه و انحلال تفكيرهم الممثل فى تلك الصور الخياليه الأسطوريه التى أضفوها على أئمه آل البيت، فقال لمن أثنى عليه من أهل العراق: «ما أكذبكم و ما أجرأكم على الله، نحن من صالحى قومنا، و بحسبنا أن نكون من صالحى قومنا». و ما له لا يعلن ضلال محبيه و هو الامام المنكر لذاته فى سبيل دين الله؟ و مع أنه كان يستمع الى سب جده الامام على، و سب ذريته على المنابر و هو منهم، فلم يشأ أن يقاوم الجريمه مثلها - و هو الذى لم يصب بازدواج الفكر - فلم يشجع السبابه و بخاصه الكيسانيه فى سبهم لآل أميه، لأن المسأله عنده ليست مسأله أشخاص، و انما هى أساسا قضيه الاسلام الذى ينفر من السباب، و يدعو الى الوئام، و لئن كان الأمويون دعاه شتم و سباب، فلم يشأ الامام أن يجاريهم فى باطلهم، بل آثر الاعتصام بالحق، و قال للشتامين من الشيعه: «أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عزوجل فيهم: (و الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان و لا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم (١٠))[الحشر:١٠]. [صفحه ٢٠] و لم ينس الامام أن يواجه الغلاه الذين وضعوا الأئمه فى درجه من الألوهيه بألامه و غضبه الشديد من مسلكهم هذا، فكان يقول لهم: «أيها الناس، أحبونا حب الاسلام، فما برح بنا

حبکم حتی صار علینا عارا». هو رجل الاسلام المنکر لذاته من أجله، و لذلک التفت حوله القلوب، و اجتمع حوله المسلمون باعتباره المثل الأعلی للقدوه الاسلامیه الحسنه التی یجب أن تحتذی، و تمنی الجمیع لو أن علی بن الحسین أصبح امام المسلمین و أمیرالمؤمنین، اذن لعاد المجد الأول للاسلام، و امحی ما جد فیه من بدع و أهواء. کانت صلات الامام مع العلماء المخلصین وطیده، و لم یکن یری لنفسه فضلا علی علماء العصر، بل انه کان یسعی الی سعید ابن جبیر الذی قتله الحجاج عام أربع و تسعین من الهجره و یتتلمذ له، و کان یعتبر الغلو مهانه لآل البیت کما روینا عنه من قبل، و کما کان یردد دائما: «لیس عندنا ما یرمینا به هؤلاء» و یشیر الی العراق. و دان بالصفح الجمیل عن کل من أساء الیه، حتی لقد جاءه رجل فقال له: ان فلانا قد ذمک و وقع فیک. قال: فانطلق بنا الیه، فلما رآه قال له: یا هذا، ان کان ما قلته حقا فغفرالله لی، و ان کان ما قلت فی باطلا فغفرالله لک». تلک هی أهمیه الامام السجاد فی التاریخ، و هی أهمیه نابعه من تمثل شخصیه الاسلام الحق فی شخصه، و من أنه لم ینفعل بما یسمع من لعن جده و أبیه و لعنه هو فی کل صلاه جمعه، و علی کل منبر، کما لم ینفعل بما أضفاه الشیعه علی آل علی و هو منهم من أساطیر تحلو فی أعین طلاب المجد و فی قلوبهم، فلم یذهب به حق علی عدو، و لم یأسره غلو من صدیق، بل کان هو الاسلام الحق مجسما فی خلائق انسان، و قل علی

وجه الأرض من يقف هذا الموقف العجيب الذى ينم عن تحكم شديد فى العاطفه و سياده عليها، و اضراب عن الاستجابه لها الا فيم يخدم الاسلام و كفى. فزين العابدين هو المبدأ الحق فى انسان، و ليس هو انسانا بكل عواطف البشر فى مبدأ. ولكن باحثى العصر الحديث يحلولهم دائما أن ينساقوا وراء المستشرقين فى الحكم على رجال الاسلام البارزين من أمثال الامام السجاد، و فى تقييم شخصياتهم و أعمالهم على صوره تخفى تفوقهم و تساميهم عن باطل العرف، و فاسد الموازين، و تعلل هذا التسامى و تلك العظمه بعلل سياسيه خارجه عن نطاق شخصيه الرجل العظيم. [صفحه ٢١] قالوا: ان السبب فى التفاف المؤمنين حول الامام زين العابدين هو أن أمه كانت أميره فارسيه، و من ثم كان يحق فى نظر الفرس حمل التاج الساسانى، و يحكم العرب و العجم. و قد أيد المرحوم الأستاذ أحمد أمين هذه الفكره فقال فى فجر الاسلام: «ان من عقائد الفرس الدينيه التى كان لها أثر فى بعض المسلمين أنهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهيه اصطفاهم الله للحكم، و خصهم بالسياده، و أيدهم بروح منه، فهم ظل الله فى أرضه... فنظره الشيعه الى على و أبنائه هى نظره آبائهم الأولين». و قد نقل الأستاذ الدكتور مصطفى الشيبى هذه الآراء عن الكتاب المعاصرين و قال: انها زبده رأى «جوبينو» فى كتابه «الدين و الفلسفه فى آسيا الوسطى». كما نقل عن الدكتور حسن ابراهيم حسن انسياقه وراء تلك الفكره فى كتاب تاريخ الأدب الايرانى، ثم دحض الدكتور الشيبى تلك المزاعم مؤكدا تشابه الأمر على الباحثين، فقد ثبت أن الموالى فى عصر زين العابدين لم يرفعوا صوتا بتلك الدعوه، كما

أن نظريه النور التى شاعت فى ذلك العصر و التى يمكن أن تكون مستند اللقائين بهذا الرأى قد ظهر أثرها متأخرا جدا عن حياه زين العابدين. و الدكتور الشيبى مشكور لأنه لم يغتر بقول المستشرقين، و لا بأقوال من حذا حذوهم. و نزيد عليه فنقول: ان التفاف الناس حول زين العابدين كان نابعا من رغبه أكيده لدى الناس بوجه عام فى رتق الفتق الكبير الذى حدث فى الاسلام، و لم يكن مؤهلا بهذا الأمل على الاطلاق غير زين العابدين، و لم يكن أنصاره مؤهلين أيضا لحمل السيف. كانت المشكله تتطلب رجلا هادئا متزنا، يدرك مصلحه الاسلام أولا و أخيرا، و يضحى بصالح نفسه فى سبيلها، و ينكر ذاته من أجلها، و لا يفرط فى مبدأ خلقى اسلامى حتى ولو كان فى ذلك التفريط رئاسته و سلطانه، و كان عامل الوراثه هنا يؤهل زين العابدين لأن يكون هذا الرجل، فجده الامام على رفض مبدأ الرشوه ليحقق لنفسه نصرا أكيدا على جيش معاويه، و يوطد الملك و الخلافه لنفسه، اذ لم يكن الأمر يتطلب منه سوى دنانير يوزعها على الجيش فى مواجهه الدنانير التى أنهالت على جيش معاويه و برفت فى قلوب جند الامام، ولكن الامام كان يرى أن المشكله ليست، مشكله على بن أبى طالب، و انما هى مشكله سياده الاسلام، و ليست مشكله جيش يرضى و يسخط، بل هى أزمه الايمان الذى يدفع الى الجهاد فى سبيل الله بالمال و النفس لوجه الله. [صفحه ٢٢] لم يكن الامام يجهل هذا، بل لقد سار فى سياسته عن وعى سار على نهجه حفيده زين العابدين من بعده، و بينه و بين جده فدائيه أبيه الانتحاريه النادره فى سبيل الحق و هى من

نفس الطراز الصادق و المنكر للذات. لهذا التشابه وحده التف المسلمون حول الامام زين العابدين، و أعجبوا بابن بنت النبى الذى وضع نفسه موضع التلميذ لأحد الموالى و هو سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج، و كان تلقيه عن سعيد بن جبير فى الواقع ضربه فى صميم الشرف الأموى الذى احتقر رجاله الموالى، و احتقر المسلمين من غير العرب، كما كان ضربه قاصمه للشيعه الذين كانوا ينسبون الى الأئمه من آل البيت أطلاعهم على العلم السرى، و على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس، و تقدير التنزيل على التأويل، و تصوير الظاهر على الباطن التى أثروها عن أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفيه. لم يشأ زين العابدين أن تكون القاعده التى يدعو فيها الى المثل الأعلى المتمثل فى القدوه الحسنه و التى تعمل على احياء ما هجر من مبادى ء الاسلام ضيقه ضيق قاعده الشيعه وحدها، أو قاعده العلماء وحدهم، بل شملت قاعده قدوته الحسنه العلماء و الشيعه و العامه و حكام بنى أميه أنفسهم، و أصبح بهذه السياسه الحكيمه أمل الملايين، و ملتقى أبصارهم. لم يكن هناك غيره يمكن أن يلتف حوله المسلمون بقلوبهم، و لم يكن هناك غيره يستطيع أن يصل بصوته الى أسماع المسلمين، فهو رابع الأئمه عند الشيعه مسبوقا بالامام على، و الامام الحسين، ثم محمد بن الحنفيه، ثم الامام السجاد الرابع. و كان الغو قد بدأ منذ عهد الامام على، ولكنه لم يتخذ فى عهده طريقا مستقرا، لأنه كان يقمع كل من يخرجه عن دائره الانسان أما الأمويون فقد غلا جيشهم غلوا فاحشا فى تصوير الجمل الذى كان يحمل أم المؤمنين عائشه رضى الله عنها بصوره روحانيه هو الآخر، و ذلك حين أخذ رجال من الأزد

الذين كانوا يحيطون بالجمل بعر الجمل و يفتونه و يشمونه و يقولون: «بعر جمل أمام ريحه ريح المسك» كما يقول الطبرى، فلم يكن غريبا أن يبادلهم الشيعه غلوا بغلو ولكن فى أئمه آل البيت لا فى الجمال و غيرها مما مسه آل بيت النبوه. و لم يكن الامام الثالث محمد بن الحنفيه بمستطيع أن ينفذ بصوته الى الناس - و كان [صفحه ۲۳] يكره الغلو - لأن ابن الزبير كان قد حاصره فى الشعب، و كان عبدالملك بن مروان يحول بينه و بين الاتصال بأنصار أبيه، فما زال ينتقل من بلد الى بلد حتى مات بالمدينه، و خلفه ابنه أبوهاشم عبدالله، الذى يصفه الأصفهانى فى مقاتل الطالبين بأنه كان «لسنا خصما عالما و كان وحى أبيه». ولكن ما أثر من تاريخه يقول: انه أحيا فكره التنبؤ بالمغيبات، و ذلك ظاهر مما رواه الأصفهانى من أنه أخبر السفاح بأنه سيموت عند وصول وافدين أحدهما من السند و الآخر من الهند، كما أنه كما يقول اليعقوبى قال بسريه الأعداد و أهميتها، و قال بفكره تجديد الدين كل مائه عام كما أسلفنا من قبل، و لذلك لم يكن صالحا لحل المشكله فى قلوب الغالين، لأنه قد فتح بابا من السريه فى العلم، و هذا الباب مرتع خصيب للغلو و الغلاه، كما أنه حصر الامامه فى كل من يعلم العلم السرى وحده، و ينقل الشهرستانى عن أصحاب أبى هاشم عنه قوله: «ان لكل ظاهر باطنا، و لكل شخص روحا، و لكل تنزيل تأويلا، و لكل مثال فى العالم حقيقه، و المنتشر فى الآفاق من الحكم و الأسرار مجتمع فى الشخص الانسانى، و هو العلم الذى استأثر بن على عليه السلام، ثم

ابنه محمد بن الحنفیه، و هو أفضی بذلک السر الی أبی هاشم، و کل من اجتمع فیه هذا العلم فهو الامام حقا». فلئن کان هذا القول ظل من الحقیقه عند التأمل العمیق فلیس العصر عصر العمق الفکری، و الفلسفه الانسانیه، بل هو عصر یتطلب من المصلح العوده الی البساطه، و اغلاق باب التعمق اغلاقا تاما، فما مصیبه العصر آنذاک الا التعمق و الاغلاء، و لیس یجوز أن نعالج المشکله بنفس المشکله. من هذا العرض یتبین لنا عبقریه زین العابدین و وعیه الدقیق فی مواجهه المشکله و فهمها، و ادراک أبعادها، و صحه منهجه الزهدی البعید عن الخوض فی مشکله الامام و شروط الامام، و کان منهجه الزهدی المتسامح عاملا من عوامل نجاحه فی طریقه، اذ التف حوله الزهاد و العلماء و العامه، و الشیعه فی تحفظ من الخوض فی مسائل الفلسفه التی کان یمقتها، و هذا هو السرفی أن عبدالملک بن مروان کان یحبه و یقدره قدره. [صفحه ۲۴]

رأس أهل الملامه

من العسیر أن ندرک حقیقه العمل، أو حقیقه الهدف من العمل عند أهل الملامه الخلص أهل القدم السابق، و السلوک السوی، و الاخلاص العمیق، و الایمان الخالص من الشائبه. أما أهل الملامه المتأخرون فانهم وقعوا فی المنکر و هم یحاولون تخلیص أعمالهم من الریاء کما یوحی به قول حمدون القصار، ذلک الملامتی البارز حین یقول: «اذا رأیت سکران فتمایل، لئلا تبتلی بمثل ما ابتلی به». فقد أهمل حمدون شعیره النهی عن المنکر، و أوهم الناس بسکره، و ربما لم یفطن أحد العامه الی هذفه فعاقر الخمر اعتمادا علی مظهر حمدون الذی کان یعد فی کبار الصوفیه الواصلین. و لذلک کان من السهل کشف حقیقه العمل و

هدفه عند أهل الملامه المتأخرين، و لا سيما أولئك الذين اتخذوا أستارا رقيقه تفضح ما وراءها من دعوى الملامه عند المدعين لها فى العصر الحديث. و الملامه عباره عن العنايه باخلاص العمل لله وحده دون العنايه بالظاهر، و محاوله ستر هذا الاخلاص لله، أو ستر الأعمال العباديه نفسها بما يصرف أنظار الناس عنها. و قديما كان أهل المواجيد الصادقه يسترون مواجيدهم بالفقه و الحديث أو غيرها من الحرف و الصناعات، أما ستر الأعمال بتقليد السكارى فانه صار من بعد ذريعه الى السكر نفسه، ثم دعوى الولايه من خلاله، أو من خلال غيره من الأعمال المكروهه أو المحرمه على ما سنفصله فى نهايه هذا الفصل. و اذا كنا نعتبر الامام زين العابدين رأس أهل الملامه فانما كان ذلك قبل أن تكون الملامه مذهبا مستقر الأصول و القواعد، فهو على هذا لا يعدو أن يكون معنيا باخفاء العمل من جهه، و اخفاء هدفه من جهه أخرى، متخذا من الظروف التى أحاطت به وسيله لهذا الخفاء دون اصطناع وسائل أخرى من خارج الذات البشريه، و على هذا كان يجب أن يسير الملامتيه عبر العصور، ليجنبوا أنفسهم الوقوع فى المحظور كما حدث بالفعل. أما الوسيله التى تذرع بها السجاد لاخفاء أعماله القلبيه و أهدافها فكانت «البكاء». و كانت ظروفه الانسانيه التى يقرها العرف تحتم عليه ادامه البكاء، ولكن الأمر الذى لا يمكن، أن نوافق عليه هو أن يكون الامام السجاد أحد البكائين حسب، و لا موهبه له فى [صفحه ٢٥] الدين الا بالبكاء، لأن سيرته تفصح لنا عن كثير من المواهب الروحيه النادره التى سنعرض لها خلال هذا الفصل ان شاء الله. لقد تحقق لوم الناس له على البكاء

باعتباره كان أمرا لازما له، لا يفارقه الا قليلا، و كان رد الامام على لائميه يؤكد لهم أن بكاءه ما كان الا لظروف نفسيه معينه أحاطت بحياته، و ليس هو بكاء الخوف و اليقين الروحى الذى يصدر عاده من المتفوقين فى مواهب الروح، قال كما يروى أبونعيم: «لا تلومونى، فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه و لم يعلم أنه مات، و قد نظرت الى أربعه عشر رجلا من أهل بيتى يقتلون فى غزاه واحده، أفترون حزنهم يذهب من قلبى؟». و فى روايه أوردها صاحب روضات الجنات نقلناها عن كتاب «الصله بين التصوف و التشيع، أن الحسن البصرى لقى الامام السجاد ملثما يبكى و يتضرع فى الكعبه، فقال له: يا سلاله النبوه، ما هذه المناجاه و البكاء و أنت فى أهل البيت، و قد قال الله عزوجل: ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا. قال: دع يابن أبى الحسن. خلقت الجنه لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا، و خلقت النار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «أيتونى بأعمالكم لا بأنسابكم». فهو كما نرى ينفى الامتياز عن نفسه نفيا قاطعا مؤيدا بالدليل، و يضع نفسه فى موضع عامه الناس المطالبين بالعمل و العباده و الطاعه، ولكنه يكتفى بهذا القدر من أصول الملامتيه أمام الحسن البصرى الزاهد العالم العارف بما يكنه ابن الحسن من مواهب الروح، فلم يكن رده عليه مساويا لرده على عامه الناس بأنه انما يبكى على القتلى من أهله و عشيرته، ولكنها الملامتيه الصحيحه فى كلا الوجهين، دون نزاع، تختلف وجوهها و تتعدد طوائفها دون أن تجنح عن الواقع الى أساليب مصنوعه تثير الغش

و الخداع بين طوائف المؤمنين. و لم ينس زين العابدين أن يطلق قولا- حكيما جرى فيما بعد مجرى الأمثال يعلل به بكاءه، و ينفى عن نفسه أن يكون سببه احساسا روحيا متفوقا فيقول: «فقد الأحبه غربه». و هو قول حق، و سبب وجيه يدعو المصاب به للبكاء ليله و نهاره، و قد يكون هذا السبب عاملا من العوامل التى أذكت جذوه البكاء فى قلب الامام السجاد، ولكنه ليس كل شى ء فى مواهبه التى تناقلتها الروايات بصوره جعلتها ذات دلاله على التفوق [صفحه ۲۶] و الامتياز فى مواهب الروح حتى ولو كان طابع الأسطوره يظلل بعضها بظلاله المعبره التى تفصح عن أعاجيب أحواله فى هذا الميدان. كان مرهف الحس و المشاعر ما فى ذلك من شك، و تأثر تأثرا عميق بليغا بمصارع أهل بيته و على رأسهم أبوه العظيم لا يرتاب فى ذلك أحد، و لابد من أن تنتزع تلك الفاجعه الشنعاء دموع عينيه و أحزان قلبه و فيض عواطفه و آلامه، ولكن الذى لا يعقله انسان أن يكون بكاء الامام السجاد مدى حياته مدفوعا بهذا السبب وحده، و هو ربيب الحسين، و رضيع لبان النبوه الطاهره، و المتشرب لخلاصه الايمان الصابر الراجع بالخلق كله الى الله، بل ان العامه أنفسهم لا يكونون على حال البكاء مدى الدهر لفقد الأحبه و الأهل و العشيره أبدا، فليس من السائغ مطلقا أن ننسب الى السجاد ما لا يتحقق عند عامه الناس، فقد كان بكاؤه موجها نحو ما هو أسمى و أدل على التفوق من هذا السبب الظاهر. لقد استغل هذا السبب الظاهر ليغطى به السبب الحقيقى لبكائه، و ليعلم الناس من بعده وجوب اخفاء العمل لله بأسباب من طبيعه

حياه العابد لا بأسباب مصنوعه تنم فى كثير من الأحوال عن رياء من حيث يظن العابد أن يتجنب الرياء. و فى نفس هذا السلوك يكمن التفوق و البروز فى مواهب الروح، و سبحاتها نحو الغيب الأقدس. لقد أعلن الامام فيما روينا من أقواله قبلا أنه لا يمتاز عن غيره من سائر الناس، و ليس فيه و لا فى غيره من أئمه آل البيت ما يرميهم به أهل العراق من خروج عن مراتب الانسان، ولكنه كان يبطن فورانا هائلا من مواهب الروح كتمه عن الناس، و علل مظاهره من البكاء و العجيب بما روينا عنه من تعليلات، ولكن شده احساسه بالغيب، و يقينه بغير المنظور و كأنه مشهود منظور كان يأبى الا أن يكشف عن دخيله نفس الامام، و حقيقه ما يتبلح فى صدره من مواهب الروح، و أسباب البكاء الحقيقيه، و لم يكن ظهور تلك الدلائل التى تشير الى التفوق مقصورا للامام، فهناك اجماع على خلائق من خلائقه كان يحكم كتمانها احكاما عجيبا بحيث لم تظهر حقيقه أخلاقه سبويه الا بعد موته، و كان ذلك منه امعانا فى احكام أخلاق أهل الملامه، و احكام طرائفها. فمن غرائب ذلك أنه كان مشهورا بالبخل، لأنه لم يكن يتصدق مطلقا أمام الناس و لا فى مواجهه السائل، و كان سعيدا باشتهاره بالبخل و لوم اللائمين عليه، ولكنه لما مات انقطع عن مائه أهل بيت بالمدينه ما كانوا يجدونه ملقى فى دهاليز بيوتهم من عطاء [صفحه ٢٧] جزيل، فكان فى ذلك دلاله على أنه كان كما تروى المراجع يذهب مستخفيا فى جنح الظلام، و يحمل على ظهره جرب الطعام،؟؟ فى دهاليز من كانوا يقصدونه و يمنعهم عطاءه، و يروى

أبونعيم عن جرير أن الامـام حين مات وجـدوا بظهره آثارا مما كان يحمل بالليل الجرب الى المساكين». كما يروى القرمانى فى أخبار الدول، و الذهبى فى التذكره أنه كان يتصدق سـرا و يقول: «صدقه السـر تطفى ء غضب الرب». لقد نجح الامام فى كتمان كرمه النبوى الذى ورثه عن جده الأعلى صلوات الله عليه، و صبر على شهرته بالبخل فى سبيل نجاح العمل السرى الواجب شرعا، ولكن الله أبى الا أن يدع العلامه الواضحه التى تدل على كرمه بعد موته، و التى تعتبر من صنيع الامام فى حياته مثلا أعلى للعمل الاسـلامى الذى يحفظ كرامه المؤمن و ماء وجهه، و يؤكد حكمه السريه فى الصدقه لهذا السبب و لغيره من الأسباب الاجتماعيه الأـخرى. هـذا أمر يمكن كتمـانه حقـا على تفوق و عبقريه نـادره، و قوه خارقه على الصبر فى مواجهه الاتهام بالبخل، فهل يعجز هـذا الصبر الهائل عن التسـلى عن فقـد الأهل و العشـيره و هو أمر أهون من رميه بخلق ممقوت كالبخل، بل ان فقـد الأهل يزيده شرفا و عزا على مدى العصور، و سـموا فوق هامه التاريخ؟ ولكن مواهب الروح لابد أن تتفجر أحيانا فتكشف عن دخيله الامام و حقيقه مكـانه بين أهـل الايمان النبوى الموروث و أصـحاب الحاسه الوحيه البارعه الصادقه، و غير ذلك من المواهب و مواريث العمل الايمانى الـذى كان يخفيه بالبكاء، و يتستر به من مظنه الادلال بالعمل، أو الاشـتهار به، أو رياء الخلق فيه. و كان انكشاف تلـك الحقيقه يتخـذ أهـدافا مختلفه كلها تخـدم قضـيه الايمان الصادق، و تـدعم الأساس الهام فى العمل الاسـلامى و هو توجيه الاراده بالعمل نحو الله وحده لا شريك له، لا لهدف آخر سواه.

فهو يقول فى روايه أبى نعيم مبتهلا الى الله فى لحظه من لحظات اتهام النفس بالتقصير رغم بلوغها الغايه فى الاجاده: «اللهم انى أعوذبك أن تحسن فى لوائح العيون علانيتى، و تقبح فى خفيات العيون سريرتى، اللهم كما أسأت و أحسنت الى، فاذا عدت فعد على». فهو يخشى أن تكون علانيته أبلغ من سريرته فى الاحساس بالاخلاص، و فى اخلاص الاراده لله وحده، و فى البأس من الخلق كلهم و الثقه بالله وحده، يخشى ذلك رغم جهوده التى كان يبذلها فى الاسرار بأعماله، و احكام السنار حولها أن ينفذ منها شى ء يعلمه [صفحه ٢٨] عنه الناس، و هو فى الوقت نفسه يلقن أهل الملامه درسا هاما فى سلوكهم هو: وجوب الدوام على اتهام النفس بالتقصير. و الذى ندركه من حقيقه سلوك الامام أنه كان حريصا كل الحرص على أن تكون سريرته أغنى بالاخلاص من ظاهره، و أغنى بالاراده الصادقه من بوادى أموره، و كان يعد الخلل فى هذا التوازن بين السريره و العلانيه، أو عدم اثراء السريره عن العلانيه بالنيه الصادقه ذنبا يسأل الله تعالى أن يستره بغفرانه، و فوق ذلك كله فانه عد نفسه أحد المذنبين فى سابق الحال، و يرجو أن يواليه الله تعالى بالغفران. و قبل أن ننتقل الى هدف آخر من أهداف الامام التربويه فى فقه الايمان يحسن أن نعرض بالتحليل لعنصر الذنب الذى ورد فى هذا الدعاء. ما هو الذنب الذى اقترفه الامام، و الذى يشير الى احتمال العوده اليه راجيا موالاه الغفران؟ لا نجد فى سيره الامام مطلقا ما يشير الى مظنه الذنب الا أحد أمرين: أولهما: استحاله الوفاء بحق الله فى التعبير عن العبوديه الحقه قولا و عملا

وفاء كاملا بحيث لا يؤخذ عن العابد فيه أى مأخذ من قريب و لا من بعيد، فالنعم الالهيه من الوفره و الثراء بحيث لا يفى بها شكر شاكر، و مسأله الشكر فى ذاتها لا تنتهى الى نهايه، فالشكر تتبعه زياده من الله تعالى فى الانعام، و لذلك قالوا: ان الشكر يحتاج الى شكر، و هكذا تنهار أقوى الهمم عن الوفاء بحق الشكر و موالاته تبعا لتوالى النعم، و هذه احدى وجوه العجز البشرى العام، و هذا العجز ان كان هينا فى نظر العامه بالنسبه للامام السجاد لأنه اتقى الله ما استطاع، فان الامام يعده ذنبا وجب الاستغفار منه. و ثانيهما: أن الحال كان يقتضى تغيير المنكر السائد فى الدوله من أعلاها الى أدناها، و كان المسئول الأول فى العصر هو الامام السجاد باعتباره البقيه الباقيه من سلاله النبى صلى الله عليه و سلم صاحب الدعوه، و الباذل نفسه فى سبيل تحقيقها على وجه الأرض قولا و عملا. ولكن مصائرين الجاهرين بالنهى الراغبين فى تغيير المنكر السائد كانت معروفه واضحه لدى الجميع، بالاضافه الى تخاذل الناس عن جديه العمل، و اشتهارهم بنقض العهود، و فى القاء الامام السجاد بنفسه الى تلك التهلكه المؤكده خطر على الاسلام ذاته، اذ لا يوجد من بعده من ينهض بالناس على طريق القدوه و على تربيه جيل فاهم واع لحقيقه العمل الاسلامى الصحيح. و من ثم كان وجوده لازما لبيان تلك الأسس للناس [صفحه ۲۹] فى نطاق مدرسته الزهديه. فاعتبر سكونه هذا ذنبا يجب الاستغفار منه، و هو فى الواقع ضروره أملتها مصلحه الاسلام و الغيره على أسسه أن تضيع من جهه، كما أملتها الأوامر الالهيه الصريحه بعدم اعانه الانسان

على نفسه اذا تحقق الهلاك. و من أهدافه التربويه التى لم يستطع كتمها وفاء بمذهب أهل الملامه الحق، و التى تعتبر ذات دلاله بالغه على القيمه الحقيقيه لتفوق الامام الروحى ما يبدو من قوله: «ان قوما عبدوا الله رهبه فتلك عباده العبيد، و آخرين عبدوه رغبه فتلك عباده التجار، و قوما عبدوا الله شكرا فتلك عباده الأحرار». فهو هنا لا يتحدث عن نفسه، و انما يتحدث عن مسالك الناس فى العباده حديث الواعى الفاهم لهدف الناس من العباده بحيث لا يخرج عابد عما حدده الامام من أقسام ثلاثه. ولكن نلمح من حديث عن الناس ايمانه العميق بالحب الالهى الذى ظهر مبكرا فى صوره منظمه على يديه. فهذا الحب هو الذى تبدولوا معه منه عباده الأحرار البريئه عن الخوف من العذاب، و الرغبه فى الثواب، فهى عباده قوامها الحب وحده اذا لم يحدوها خوف و لا رجاء. و رغم أن عباده العبيد و عباده التجار مشروعه، و لا ضير على المسلم من عباده ربه خوفا منه أو طمعا فيما عنده فان الامام زين العابدين قد هدف من قوله هذا الى رفع همم المسلمين الى أرقى مستويات الوعى الروحى بالترغيب فى الحريه الكامنه فى الشكر، و لا يستبعد أن يكون الامام قد هدف كذلك الى صد الناس عن الخوف و الرغبه اللذان دان بهما الناس لأولى الأمر حتى فسدت أعمالهم، و اختلت اراداتهم على الصوره المزريه التى عرفت عن عامه أهل ذلك العصر. و من هذا النص نفهم كذلك أن البخل الذى اشتهر به الامام لا حقيقه له الا فى معرض التستر و الاسرار بالعمل، و الرغبه فى شيوع العكس على طريقه أهل الملامه. و ذلك لأن الشكر

الـذى اعتبره الاسـلام أصـلا فى المعامله بين الله و عباده، و الـذى دان به الامام السـجاد يقوم أساسا على: الاقرار باللسان، و عـدم اسـتعمال النعم فيما كره الله، و وجوب العود بها على أهل العدم و المسـكنه. و أعلى الشـكر ما عاد به الشاكر على أهل المسـكنه سرا، و أعلى منه أن يعود الشاكر عليهم من حيث لا يعلمون من الذى أعطاهم، و ذلك كان مسـلك الامام زين العابدين رضوان الله عليه. ولكن الأمر الـذى لم يسـتطع كتمه حقا، و لا طاقه لانسان على كتمه فهو ظهور آثار [صـفحه ۳۰] الانفعالات الوجدانيه على ظـاهر ملامحه حينما كان يقف بين يـدى الله تعالى. فقـد كانت تظهر عليه رعـده، و يعلو وجهه شـحوب، و ينتفض انتفاضـه ظـاهره سـنعرض لها بالتفصـيل مع غيرها من مظاهر وعيه الروحى فى مكانها ان شاء الله، ولكن الـذى يهمنا هنا أنه أعلن أن هـذه الظواهر البدنيه ما هى الارد فعل لما يحسه من هيبه الله تعالى حين يسـتعد للوقوف بين يديه للمناجاه. فكيف يستقيم هذا الاعلان مع مبدأ الاسـرار بالعمل الذى دان به عن طريقه أهل الملامه الأصـلاء الأقدمين؟ و نقول: ان ستر الأعمال، أو «الملامتيه» ان صـح أن نطلقها على سلوك الامام السجاد فى أصل وضعها لا تحظر اعلان الأصول العمليه للقدوه و التربيه لا سيما و قد كانت هيبه الله توشك أن تندثر من قلوب أهل العصر فى أيام زين العابدين. و هل هناك من خير فى ستر مظاهر الهيبه المتسلطه على القلب من جلال الله بين أقوام تسلط عليهم الطمع و سادهم حب المال، و عدوا بسيوفهم و ألسنتهم على آل بيت النبوه؟ بل ان الخير كله فى اظهار ما

كان يصح اخفاؤه لا سيما من امام جليل كزين العابدين يأمن الرياء و يأمن علل الأعمال الأخرى بحكم نشأته و دربته على العمل العبادى الصحيح منذ نعومه أظفاره. و هكذا نلمس بوضوح أصول «الملامتيه» فى سلوك الامام السجاد، ولكنها عنده مذهب لا يحيد به عن الطريق، فهو يتلمس أسبابا من الظروف المحيطه بحياته يستر بها أعماله، و يخفى بها حقيقه مشاعره العباديه، و يوجه أنظار الناس نحو تلك الأسباب طلبا للكف عن الثناء عليه و تمييزه بين الناس بالشهره، و هو ينآى عن كل سبب مصنوع يستر به العمل أو هدف العمل، فالصناعه طريق شائك تخبط فى ظلماته من جاء بعده ممن أسسوا الملامتيه مذهبا منظما له قواعده، شأنهم فى ذلك شأن كل من حاول برأيه تطوير دين أو ابتداع ما يسميه بالبدع الحسنه، فذلك نهايته المروق و التخبط فى الظلمات. و الآن نعرض لمذهب أهل الملامه فى ايجاز نتبين منه كيف انحرفوا به عن الطريق بعد السجاد. و أقرب النصوص التى توحى بالملامه الى عصر الامام زين العابدين: أن سفيان الثورى خلا مع الفضيل بن عياض فبكيا، فقال الثورى: انى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا خير [صفحه ٣١] مجلس جلسناه. فقال الفضيل: ترجو، ولكنى أخاف أن يكون شؤما علينا. و علل الشؤم بأنه تزين كل منهما للآخر بأحسن ما عنده من القول، فعبد كل منهما الآخر من حيث لا يرى. و أقر الثورى فضيلا على رأيه و قال: «أحييتنى أحياك الله». و الفضيل نفسه هو الذى وقف له على باب المسجد جماعه بعض الزهاد من الشبان على باب المسجد، و عليهم الصوف بالكوفه، فخرج عليهم فلما رآهم قال: «وددت أنى لم أركم و لم

ترونی، أترونني سلمت منكم أن أكون لكم ترسا حيث تراءيتم لی و تراءيت لكم؟ لأن أحلف عشرا أنی مراء و خادع أحب الی من أن أحلف واحده أنی لست كذلك». فهنا ملامح للملامه قويمه المسلك، تنزع نحو البراءه من الدعوی، ولكنها لا تتخذ من الظروف المحيطه بالنفس ستارا حول المواهب الروحيه و غيرها من ألوان التفوق الدينی، بل تنزع نحو اتهام النفس علانيه علی الصوره التی نراها عن الفضيل بن عياض. و من قبل الفضيل - و هو أقرب الی عصر زين العابدين كان منصور بن المعتمر السليمی الزاهد الكوفی المتوفی عام، ۱۳۲ و كان قد صام أربعين سنه، صام نهارها، و قام ليلها، و كان يبكی الليل فتقول له أمه: يابنی أقتلت قتيلا؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت نفسی. فاذا أصبح كحل عينيه، و دهن رأسه، و برق شفتيه، و خرج الی الناس. و هذا نموذج طبيعی للملامتيه التی تستر الأعمال بما هو مباح من الأعمال و الزينه. فالملامه علی هذا: اظهار أدون الأحوال العباديه و كتم معاليها، فليومهم الخلق علی ظواهرهم، و يلومون أنفسهم علی ما يعرفون من حقائقها. و يفرق الدكتور أبوالعلا عفيفی بين الصوفی و الملامنی فی كتابه «الملامتيه و الصوفيه و أهل الفتوه» فيقول: ان الفرق بينهما: أن الصوفی ينم ظاهره عن باطنه، و تظهر عليه أنوار أسراره فی أقواله و أفعاله، لذلك لا يتحرج الصوفی عن اظهار الدعاوی كالحلاج و غيره. أما الملامتی فحفيظ علی سر الله، يكتم فی نفسه ما بينه و بين ربه علی عدم التحقق من التقصير. و بعد زمان طويل جاء حمدون القصار المتوفی سنه ۲۷۱ من الهجره، و قرر لطلاب طريقا الی الستر منحرفا فقال: «اذا

رأيت سكران فتمايل لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك». و منه ترى تحول الهدف الأصلى للملامه الى هدف آخر أتقاء الاعتراض على العصاه، و قد مربنا نقد هذا القول أول هذا الفصل. [صفحه ۳۲] و من مدرسه حمد و القصار انتشر مذهب الملامه كما يقول السلمى الذى وصفه بأنه شيخ أهل الملامه. و من الأمثله التى نراها قد انحرفت بالملامه عن أصولها الأولى التى لمسناها عند الامام زين العابدين، و فتحت أبواب الانحراف للصوفيه تحت ستار الملامه ما روى عن أبى حفص الحداد من تأديبه مريده أباعثمان الحيرى، اذا أودع تاجر من تجار نيسابور جاريه عند الحيرى، فوقع نظره عليها يوما فعشقها و شغف بها، فكتب الى شيخه الحداد بالحال، فأمره بالسفر سعيا الى صحبه شيخ يسمى يوسف بالرى، فلما وصل الى الرى، فلما وصل الى الرى وسأل الناس عن منزل الشيخ يوسف أكثر الناس فى ملامته و قالوا: كيف يسأل تقى مثلك عن بيت شقى فاسق، فرجع الى نيسابور وقص على شيخه القصه، فأمره بالعوده الى الرى و ملاقاه الشيخ يوسف. فلم يبال بذم الناس له، وازدرائهم به، فقيل له: انه فى محله الخماره، فأتى اليه و سلم عليه فرد عليه السلام و عظمه، و كان الى جانبه صبى بارع الجمال، و الى جانبه الآخر زجاجه مملوءه من شى ء كأنه الخمر بعينها. فقال له الشيخ أبوعثمان: ما هذا المنزل فى هذه المحله؟ فقال: ان ظالما اشترى بيوت أصحابنا و صبرها خماره، لوم يحتج الى شراء دارى. فقال: و ما هذا الغلام؟ و ما هذه الخمر؟ فقال: أما الغلام فولدى من صلبى، و أما الزجاجه فخل. فقال: و لم توقع نفسك فى مقام التهمه بين الناس؟ فقال:

لئلا يعتقدوا أنى ثقه أمن و يستودعونى جوابهم فأبتلى بجهن. فبكى أبوعثمان بكاء شديدا و علم قصد شيخه. من هذه النقطه بدأ انطلاق جديد نحو اختلاق أسباب جديده للتستر هى فى ذاتها محرمه أو مكروهه، كما رأيتا فى القصه السابقه من اصطناع مجالسه المرد، و اصطناع شبيه بالخمر، و قد تطورت تلك الأسباب فى نطاق الملامتيه فأصبح الشاب الأمرد أجنبيا، و أصبح الخل خمرا حقيقيا، بل ان الأمر قد تطور فيما بعد الى فضائح دعت أمثال جولد تسيهر الى أن يقول فى كتابه «العقيده و الشريعه»: انهم كانوا «يهتمون بكل ما يثير السخريه و الفضيحه بمسلكهم، و ما يجر عليهم مذمه الناس لهم، و يرتكبون من الأعمال ما يعد مخجلا للدرجه القصوى يبغون بذلك تطبيق مبدئهم و هو: ازدراء الاحتقار». و قد تطورت الملامتيه بحكم هذا الانطلاق الى طريقه أطلق عليها اسم «القلندريه»، و من شيوخهم قطب الدين حيدر (ت ۶۱۸) و يقول المقريزى: انه أباح لتلاميذه تناول [صفحه ۳۳] الحشيش، و اهمال الواجبات الشرعيه. و يحاول السهروردى التخفيف من الشعور بانحرافهم فيقول: انهم طرحوا التقيد بآداب المجالسات و المخالطات... و ساحوا فى ميادين طيبه قلوبهم، فقلت أعمالهم من الصوم و الصلاه الا الفرائض... و ربما اقتصروا على رعايه الرخصه، و لم يبالوا بحقائق العزيمه». و النظر الدقيق فى سلوك أكثر متصوفه عصرنا الحاضر يعطينا حقيقه هامه هى: أنهم يتمسحون بمذهب أهل الملامه و يفسقون عن دين الله بحجه ستر الأعمال و الأحوال. حقيقه ان فيهم أقواما فضلاء أخلصوا دينهم و أعمالهم لله، ولكن بينهم كثيرا من الأدعياء، و من هؤلاء الأدعياء جهلاء يختلط رجالهم بنسائهم، بل و قد يجمعهم فراش واحد، و منهم من

مسخ هيئته و ملبسه حتى يصير مثيرا للضحك و السخريه. و منهم عالمون بأحوال الطريق دارسون لطقوسه، سالكون فى ظاهر الأمر لدراجاته، ولكنهم رغم ما يسحر مجالسهم من سماع أحسن القول فى مقامات الطريق فاقدون للأمانه، يتخذون علمهم وسيله لكسب الدنيا تحت ستار ثقه الناس فيهم، و باسم أهل الملامه. من هنا تأتى أهميه الامام السجاد فى تخطيطه الواضح الذى لا يحتمل التطوير و لا التجديد لأصول الملامه و وسائلها الشرعيه التى يتحتم أن تؤخذ بحذر ودقه و فحص بحيث لا يخرج الملامتى عن واقع بيئته و لا واقع شريعته فى شى ء. فاذا كانت «الملامه» ضروريه لاحتفاظ الانسان المؤمن الصادق الاراده بسريه أعماله، و سريه هدفها الموجه نحو الله تعالى وحده، فان الوسائل الموصله اليها لابد أن تكون من واقع حياه الانسان العابد الراغب فيها كما كان عليه الامام السجاد، و اما أن تكون وسائل شرعيه بحته كالفقه و روايه الحديث كما كان عليه المخلصون من أئمه السلف من أمثال الثورى و مدرسته، و اما أن تكون عملا اجتماعيا يفصح عن حقيقه الاخلاص، و حقيقه الاراده كما كان يفعل ابراهيم بن أدهم، اذ كان يعمل حصادا، و حارسا للبساتين، ثم يعود بما زاد عن الضروره من أجره على اخوانه و على أهل العدم و المسكنه من المسلمين. أما أن يصطنع الملامتى أسبابا أخرى تكون مظنه للفسوق و المعصيه فهذا هو الانحراف بعينه. فالعقل و المنطق لا يقر الوصول الى الطاعه بما يشبه المعصيه، أو بما يشجع الجهلاء على المعصيه، و الأصول التى سار عليها السلف لا تؤيد تلك الأعمال البلهاء التى تساعد على التفلت من قيود الشريعه السمحه. [صفحه ٣۴] على أن سلوك أهل

الملامه فی ذاته لا تمس الحاجه الی اصطناعه ان لم یکن من طبیعه حیاه الانسان سبب ساتر للعمل، أو کان فی استعداد السالک میل الی درس العلم و الفقه مثلا. فهو مذهب کما رأینا کان سریع الانحراف بأهله فی عصر قریب من عصر النبوه، فما بالنا فی عصرنا الحاضر و قد بعد العهد بعصر النبوه، و انحلت الهمم عن درس سیر السلف؟ لقد کان السلف یصطنعون الملامه مذهبا لستر أرفع الأحاسیس و أرضاها لله تعالی، فأصبح المحدثون یصطنعونها لستر أقبح الکبائر، و أدون الأخلاق و اسخطها لله تحت ستار دعوی التصوف، و التشدق الممقوت بالمنازل و الأحوال. و لقد مضی الامام السجاد فی بیان أهداف الملامه بالسلوک العملی و القدوه الحسنه الی حد الاشاره الی حال من أحواله جاء عفوا و دون عمد منه، بل ساقه القدر الیه لیکون فارقا بین ملامتیه القرن الأول و ملامتیه القرن العشرین و من قبل العشرین. روی الذهبی فی تذکره الحفاظ أنه سقط ابن للامام السجاد فی بئر ففزع أهل المدینه کذلک حتی أخرجوه فکان قائما یصلی فی المحراب فما زال فی مکانه. فقیل له فی ذلک فقال: ما شعرت، لأنی کنت أناجی ربی. و قد یشک بعض المحدثین فی مثل هذه الروایه، و نقول: انه شعور موروث عن النبی صلی الله علیه و سلم، فقد روت عائشه رضی الله عنها أنه صلی الله علیه و سلم کان یکون فی أهل بیته، فاذا سمع الأذان مضی و کأن لم یعرفنا. کما تواترت الروایات عن سجود النبی صلی الله علیه و سلم وقتا طویلا غیر مألوف، کما جاء عنه صلی الله علیه و سلم أن له وقتا لا یسعه فیه غیر ربه.

فتلك فترات من حياه الأطهار تنقطع الصله تماما بينهم و بين العالم المحيط بهم فلا يشعرون الا بسلطان الهيبه الالهيه يسيطر على كل جوانبهم، و على جميع مداركهم فلا يحسون بشى ء الا بما هم فيه من جلال المناجاه. على أن الروايات تقول: ان عروه بن الزبير مرض وقرر الطبيب بتر عضو من أعضائه فاختار الصلاه عملا يقوم الطبيب فيه بمهمه أثناء تأديته لها، و قطع الطبيب ما أراد و لم يشعر عروه. فان صح أولم يصح هذا الخبر فهو دلاله واضحه على أن فى السلف من كان يغيب عن كل شى ء و هو يناجى ربه، و كفانا هذه الحقيقه حجه على صدق تلك الموهبه و وجودها لدى أهل بيت النبوه، ولكنا نشك مع الشاركين فى عمومها و انسحابها على هذا العصر الذى نعيش فيه الا فى حالات فرديه لا تتكرر الا بين أجيال و أجيال. [صفحه ۳۵] و نعود الى بحثنا فنرى أن الامام السجاد كان يصطنع الملامه، فينسب بكاءه الى فقد الأحبه ليخفى أمثال تلك المشاعر التى تلونه بالجلال، و تمكنه من مقامه فيبكى، و كفاه أن يكون بكاء من البكائين، و لم يشتهر فى عصره بأنه من أهل المقامات العليه فى عبادته. و لا تتردد فى القول بأنه انما أفصح عن دخيله أمره فى هذه الواقعه تعليما لمن حوله، و تنشيطا لهمهم التى كانت تشدها الأرض الى ترابها، و تعليما للمسلمين على مدى العصور فى هذا الصدد، و قد شاءت الأقدار أن تكون تلك الواقعه كذلك حقا يدفع باطل المدعين فى عصرنا الحاضر، و ميزانا يوزن به مدعى الملامه الفاسق، و المتحقق بها على هدى من ربه، فهو الميزان الذى لا يخطى ء. و

الحق أننا لا نجد بين المدعين فی عصـرنا لمذهب أهل الملامه من يفتقد أتفه شـی ء مما يملك أثناء غيبته المصـنوعه عن الخلق دون أن يتحول علی الفور الی وحش كاسر فی مواجهه منسلبه هذا الشی ء التافه. بل انه قد يتستر بالملامه من كبائر سيطرت علی كيانه، و نفاقا للناس ليحسنوا الظن به، و وسيله لاقتناص أموالهم و أعراضهم تحت هذا الستار. و من هنا تأتی أهميه سلوك الامام السـجاد فی تحقيق مذهب أهل الملامه و تحقيق وسائله الشرعيه، و التفرقه الصحيحه بين أهل الملامه الحقيقيين، و بين «قلندريه» العصر من أهل الفسق و الفجور و النفاق. [صفحه ۳۶]

مواهب روحيه

قلنـا فی الفصـل السـابق: ان الامام السـجاد كان متفوقا فی مواهب الروح بحكم وراثته، و بما حباه الله تعالی به من عقل راجـح، و توفيق الی طريقه حتی صار أفضل آل البيت، و أفضل هاشـمی علی الاطلاق. و مواهب الروح تختلف عن المواهب المألوفه لدی عامه المفكرين و الأذكياء، لأنها ترتاد الآفاق المجهوله للعقل و الحس، و ترتد من رحلاتها فی مجاهلها الی عالم الكون المنظور تسـلك بصاحبها فيه سـلوكا يبـدو فی أنظار الناس شاقا علی النفس، لا يقوی عليه جمهورهم، ولكنه فی الحقيقه مصدر سـعاده و رضـی لسالكه لا يدركهما الا مجرب. و مواهب الروح تنبع أولا من معنی الاسلام، تبدأ منه، و تنتهی اليه فی ظاهر الأمر و حقيقته علی السواء. فالبدايه من معنی الاسـلام فی ظاهر الأمر بالاذعان و الاستسلام المطلق لكل ما يرد من الغيب من أمر الهی، و كل ما علم عن رسوله صلی الله عليه و سلم من سنن و تفسيرات لأوامر الله تعالی، ايمانا بها و تصديقا لها،

و تنفيذا عمليا مقترنا بالاقتناع بها و حبها دون تدخل من جانب النفس أو العقل بالاعتراض أو بالتفضيل لمسلك دون آخر. و البدايه من معنى الاسلام فى حقيقه الأمر نعنى بها الاقتناع بجدوى دستور الغيب فى ترقيه النفس، و صفاء القلب، و المسارعه الى العمل للاستزاده من تلك الآثار التى تنمو بموالاه العمل، و الحرص عليه و التسابق اليه، دون شعور بالكلفه و لا المشقه المصاحبه له فى بعض الأحوال. تلك هى بدايه الوعى الروحى من معنى الاسلام، و هى كما نرى ذات وجهين: عمل فى استسلام دون اعتراض، و شعور وزون لروح العمل يكون معه الحرص عليه و حبه و اليقين بمدواه على الانسان. أما نهايه الوعى الروحى و مواهبه فهى كذلك لا تخرج عن معنى الاسلام فى الظاهر و الحقيقه كبدايته تماما مع اختلاف فى الذوق و الاحساس. فهى فى ظاهر الاسلام: استسلام كامل لمراد الله، و رضى بما يجرى من قدره، و شعور [صفحه ۳۷] بالسعاده من هذا الذى يجرى من القدر سواء أكان مما يعده الناس نعمه، أو مما يسمونه نقمه، فالكل سواء، لأن الشعور قد تسامى عن عالم الأسماء، و ثبت عند منبعها فلا يرى فيه الا حكمه بليغه تصدر على صوره بلاء فى اطار نعمه، أو على صوره نعمه فى اطار نقمه، و مادام نبع القدر خيرا كله، فكل ما يجرى منه خير كله. و النهايه فى حقيقه الاسلام هى: القاء الانسان نفسه و كل مداركه، و اطراحها جانبا، و التعرض لنفحات الله تعالى فى أيام الدهر، و اصغاء السمع بالقلب الى الصمت الرهيب فى عالم الغيب، و فى هذا الصمت تتوالى التجليات الالهيه فى مراتب تنزلها الى

عالم المشهود جلالا تصطلم له القلوب، و تغنى عنده المشاعر و المدارک، و ينبع فجأه شعور واع بالعظمه لا يدرکه أحد غير أصحاب المواهب الروحيه. و لتقريب وعى الروح الى العقول نتصور انسانا يقف أمام محکمه عليا يمکن أن تصدر حکما باعدامه أو بحبسه الانفرادى مدى الحياه، فهل تجد لدى هذا الانسان بقيه من شعور يوجهها نحو نزهه خلويه مثلا، أو سهره صاخبه على غرار ما يفعل الطليق من القيد خارج قاعه المحکمه؟ و هل تجد شعور هذا الذى يقف أمام المحکمه مساويا لشعور الذى صدر عليه حکم الاعدام بالفعل؟ و هل تجد شعور هذا المحکوم عليه بالاعدام مساويا لنفس شعوره و هو يساق الى ساحه التنفيذ؟ تلک مراحل ثلاث تختلف فى درجات التخلى عن المشاعر البشريه حتى تصل الى حال النهايه التى يندثر فيها الشعور بالبشريه و نوازعها تماما و لا تبقى الا معاينه المجهول، و التردد فيه بين الخوف و الرجاء، لا يجد مستقرا على أحد الوجهين، لا لشى ء الا لأن مصدره مجهول مع أنه معلوم بالقلب، و من هنا تکون الحيره بين الخوف و الرجاء مساويه للحيره بين الجمال و الجلال المعلومين من تجليات الغيب الأقدس. و کان الامام زين العابدين على درجه عاليه من التفوق فى مواهب الروح أثرت فيمن حوله و فيمن بعده، و لا زالت تؤثر الى الآن فى الملايين من محبيه و هم فى غالب الحال على جهل کامل بسيرته، و يبدد ذلک من استعراض عالم لمعالم زين العابدين فى قلوب المسلمين جاهلهم و عالمهم، فانک لا تجد الا اکبارا و اجلالا و وقوفا عند ذکراه فى على مدى أثر الروح اليقظ الواعى فى الناس عبر العصور. [صفحه ۳۸]

أما دراويش الامام القابعون حول مسجده فى القاهره فهم دلاله - مع جهلهم - على مدى ما بلغ الامام من مواهب الروح و التمكن فى أحوال العباده و مقاماتها، و لا نقول: انهم علماء عارفون بمدى تفوق الامام الروحى، بل نقول: ان ما تواتر من أخبار تفوقه قد تناقله المولعون بسيرته حتى وصل الى هؤلاء المرتزقه مشوشا مهزوزا، ولكنه على هذا التشوش دلاله تشبه تماما دلاله أقوال التراجمه الشعبيين على قيمه الآثار و تاريخها حينما يواجهونك متحدثين عنها فى منطقه الأهرام مثلا. و سنحاول التدرج من تقييم كبار العلماء له فى مواهب الروح، الى استنباط بعضها من وقائع حياته، الى تقييم العامه لمواهبه حتى ندرك المدى البعيد الذى أثرت به مجتمعات الاسلام من تأثير الامام فيها. فاجماع علماء العصر و نقاد الرجال فيه على أنه أفضل بنى هاشم على الاطلاق فى زمانه. قال يحيى بن سعيد: سمعت على بن الحسين و هو أفضل هاشمى أدركته يقول: أيها الناس، أحبونا حب الاسلام، فما برح بنا حبكم حتى بغضتمونا الى الناس. و قال سعيد بن المسيب، و زين بن أسلم، و مالك، و أبوحازم: «لم يكن فى أهل البيت مثله». و كان الزهرى يقول اذا ذكر على بن الحسين: «هو أقصد أهل بيته و أحسنهم طاعه». و كان هو و أبوحازم يقولان: «لم نرى هاشميا قط أفضل من على بن الحسين». و قال الزهرى أيضا: «كانت أكثر مجالستى مع على بن الحسين، و ما رأيت أفقه منه، و كان قليل الحديث، و كان أفضل أهل بيته و أحسنهم طاعه». و قال رجل السعيد بن المسيب: ما رأيت أورع من فلان. فقال سعيد: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال: ما

رأيت أورع منه. تلك بعض شهادات كبار العلماء و أشدهم تحفظا و أنقدهم للرجال فى الامام السجاد، و كلها تجمع على أنه أفضل أهل بيته، و أهل بيته أفضل الناس على الاطلاق، كما تجمع على تفوقه فى الورع و الفقه و الطاعه. و الورع - و هو من واهب الروح - يعنى ترك جميع الشبهات التى لا يقطع الفقه بحلها و لا بحرمتها، و العدول عنها الى الحلال الخالص الذى لا شبه فيه. و لئن كان العامه من العلماء لم يقطعوا بعصيان من تناول الشبهه اذا غلب عليها الحل، فان الموهوبين [صفحه ۳۹] روحيا لا يتناولونها ايثار المرضاه الله، و خوفا من الذلل فى جانبه تعالى، و حرصا على طهاره الجسد اللازمه لقبول الأعمال و الافاده منها. كان الامام فى مكانه من آل بيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يستطيع أن يسخر المجتمع لقضاء حاجاته، و كان يمكنه أن يعيش حياه رغده لو أنه قبل ما يرجو الناس قبوله من صلات باعتباره من آل البيت النبوى، ولكنه لم يفعل تورعا عن شبهه الحرام الكامنه فى استغلال الجاه النبوى فى احراز وسائل الانتفاع. و يقول جويريه بن أسماء فى روايه ابن كثير فى البدايه و النهايه: «ما أكل على بن الحسين بقرابته من رسول صلى الله عليه و سلم درهما قط». و الامام يعتبر الورع نهايه الزهد حين يقول: «أعلى درجه الزهد أدنى درجه الورع». و يتدرج فى التعريف بمقامات السلوك من الورع فيقول: «و أعلى درجه اليقين». فالذى يبلغ نهايه الورع يتحرز من أشياء قد لا يتحرز منها الكثيرون من فضلاء أهل الدين، و ذلك كالتحرز من الميراث الشرعى اذا وجدت فيه شبهه، و التحرز

من أخـذ سـهام الغزو فی سبیل الله ایثارا لاخلاص العمل لله وحده. و لا یصل الی هذه الدرجه الاصاحب یقین یعاین غیر المنظور و کـأنه شـهود من أمر الثـواب و العقـاب و الهیبه لله و عظیم أمره. ثم یقول الامـام: «و أعلی درجه الیقین أدنی درجه الیقین أدنی درجه الرضـی»، لأن الشـهود اذا قوی و شمل غیر المنظور کله. و دق العلم به فلابد أن یدفع الانسان الی الرضا بکل ما یجری من القدر، و اعتباره خیرا من حیث تعجز البشـریه عن التمییز بین الخیر و الشـر. و ینتهی الامام فی بیان مقامات السـلوک قبل أن یبرز الصوفیه الی الوجود فیقول مؤکـدا الاـ وجوب البراءه من الحول و القوه و النـاس و کـل مـا فی الیـد و مـا یتیحه الجهـد من قضاء الحاجات المصالح، و یؤکد أن هذا السلوک یرفع العوائق من الطریق بین العبد و ربه، و یؤهله لولایه الله تعالی لأمره، و الاستجابه له فی کل أموره، و ذلک حین یقول: «رأیت الخیر کله قد اجتمع فی قطع الطمع ما فی ایدی الناس، و من لم یرج الناس فی شـی ء ورد أمن الی الله عزوجـل فی کـل أموره اسـتجاب الله له فی کـل شـی ء». بقی أن نقول: «ان الامام قـد بلغ فی الیقین و الرضـی مبلغا یعتبر بحق من أسـمی و أعلی ما وصل الیه بشـر فی هذا المضمار. أما الرضا فیتجلی فی مقابلته للسیئه بالحسنه علی صور غیر مألوفه للکثیر من الناس [صـفحه ۴۰] سـنتحدث عنهـا ان شـاء الله فی أثناء الحـدیث عن أخلاقه، و نشـیر هنا الی حال من أحوال الرضی بناه الامام علی الیقین تحقیقا لرأیه السابق فی مراتب

السلوک، و ذلک أن رجلا قد أساء اليه، فمکن الخليفه الامام من خصمه فلم يعرض له، فقال له ابنه عبدالله: يا أبت لم لا نتعرض له، و ان أثره عندنا لسی ء، فقال: «يا بنی نکله الی الله، فوالله ما عرض له أحد من آل الحسين بحرف الا تصرم أمره». و لا شک عند أهل الفقه فی جواز القصاص من المعتدی بمثل ما اعتدی به، ولکن الامام حينما بلغ أعلی درجات اليقين شاهد عيانا ما عندالله لأهل الصفح و المغفره، فآثر الرضی بما جری لأن شهد ما فی الصفح من خير أبهمه القرآن الکريم لجزالته و عظمته حتی لا تطيقه العبارات، و ليس أدعی الی تصرم الأمر حقا من الارتداد عن الدرجات العليا الی الدرجات الدنيا من خلائق القرآن و آدابه. و من معالی يقينه ما أجمعت عليه الروايات من أن الامام کان اذا فرغ من وضوئه للصلاه و صار بين وضوئه و صلاته أخذته رعده و نفضه، فقيل له فی ذلک، فقال: «ويحکم، أتدرون الی من أقوم، و من أريد أن أناجی»؟ فهو کما نری يشهد ما بعد الوضوء من المناجاه الموجهه الی الله شهودا يقرب من درجه العيان و ان کان عيانا بالقلب و الهمه، و من ذا الذی لا يرتعد و ينتفض اذا أيقن بموقفه من ربه فی الصلاه؟ و ان الرجل العادی لينتفض و يرتعد الا اذا وقف بين يدی ولاه الأمر، فما الحال و الموقف بين يدی الاله القاهر فوق العباد؟ ولکن المسأله هی: الغفله، أو اليقين. و منه واقعه سقوط ابنه فی البئر، و عدم شعوره بما جری حتی أنقذه الناس و قد رويناها من قبل. و روی ابن کثير أن

البيت الذى هو كان قد احترق و هو قائم يصلى، فلما انصرف قالوا له: مالك لم تنصرف؟ فقال: انى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى. و روى أبونعيم و ابن كثير: أن الامام سمع ناعيه (و فى روايه ابن كثير داعيه) فى البيت و عنده جماعه، فنهض الى منزله ثم رجع الى مجلسه، فقيل له: أمن حدث كانت الناعيه؟ قال: نعم، فعزوه و تعجبوا من صبره، فقال: «انا أهل بيت نطيع الله فيما نحب، و نحمده فيما نكره». و تلك قمه الرضى لا يدركها الا أهل البيت النبوى و السائرون على هداهم، هو: [صفحه ۴۱] بذل المحبوب الذى تتعشقه النفوس، و تحرص على اقتنائه من مال و ولد و متاع، و محوه من القلب اذ أراده الله، و السرور بكل ما تنفر منه النفوس من بليته أو محنه فى مال أو ولد، و مقابله هذا الفقد بالحمد و الشكر على ما يقابله من نعيم موعود مشهود بعين اليقين. و هذا اليقين على هذه الصوره ليس رجاء كله، ولكنه كما يغلب عليه الجلال و الخوف فى كثير من الحالات، لا سيما عند أداء الفرائض التى يخشى الموقنون ألا تقبل لما يعتورها من تقصير قائم على اتهام النفس. و من هنا قد يتردد الموقن بعامل الخوف و يضطرب أمره حين أداء الشعائر، و ما هذا الاضطراب الا دلاله على قوه اليقين، و قوه المشاهده معا. قال طاووس بن كيسان: لما حج على بن الحسين أراد أن يلبى، فارتعد و قال: أخشى أن أقول: لبيك، اللهم لبيك، فيقال لى: لا لبيك، قال: فشجعوه على التلبيه، فلما لبى غشى عليه حتى سقط عن الراحله. و ما كان ذلك الا عن شهود قلبى

على وجه اليقين من اجابه الله تعالى له بما أذهله عن وجوده من أنواع الملاطفات و فيض الحب، و ان المرء لتساوره الغشيه من تذكر و تأمل، فما بال أهل اليقين و الشهود؟ و الشهود هو القرب، و القرب قمه مواهب الروح. و القرب هو اختصار الوسائل فى ادراك غير المنظور على صوره ما من صور الادراك، و كلما قلت وسائل الادراك علت الدرجه فى مقام القرب، و اشتد الاحساس بالمشهود، و تسارع وعى الروح الى الاستجابه لأمور الغيب. انه سقوط الحجب التى تحجب القلب أو الروح عن الشعور بالحقائق المتجليه فى مظاهر الحياه، فتلك الحجب تصد فيض النور الفائض من الغيب المطلق عن الوصول الى القلب، فيبقى القلب مظلما، و لا يفيد وقوع النور على حجب النفس الممثله فى الأهواء و الشهوات و عقد القلب على حب الماديات. و لتقريب الفهم نقول: ان القلب الفطرى مضى ء بطبعه، مستعد لتلقى الأنوار الفائضه من الغيب فى سرعه و وعى وفقه عميق، و الذى يحجب القلب عن عمله، أو يبطى ء منه هو تعلقه بالمظاهر الماديه حبا و عشقا على أى صوره من صور الحلال أو الحرام، ولكن [صفحه ۴۲] اتعلق بالحلال يدعه محجوبا، أما التعلق بالحرام فيدعه أغلف أضم فاقدا لطبيعته المنيره الواعيه. و كلما كثرت الحجب انعدمت استجابه القلب للظواهر الروحيه الغيبيه، و كلما قلت الحجب أبطأت استجابته لتلك الظواهر، فاذا انجابت تلك الحجب بعامل المجاهده و التطهير، أو بعامل الطبع و الاستعداد فان الانسان حينئذ يصبح موهوبا فى عالم الروح، يدرك الحقائق من حيث لا يدركها المحجوبون، و يتفاعل معها فى سرعه من حيث يبطى ء المجاهدون لازاحه الحجب. و من هنا كان ارتعاد فرائض

السجاد و هو يستعد للصلاه، و كانت صرعته حين التلبيه، فهو صاحب قلب نقى صاف طاهر من الدنس يدرك آثار الغيب فى كل موجود فيزداد فقها و علما، و يواجه الغيب فيرتعد أو يصعق، و هى وراثه نبويه معهوده فى طبائع النبى محمد صلى الله عليه و سلم لا- تخفى على دارس. و من هنا كذلك كان تقييم العامه للامام صدى لما كان معهودا فيه فى حياته على صوره من صور المجاز أو الحق، فهو فى نظرهم باب الأسرار، و هم كما يقولون كلاب على باب على. هو باب الأسرار لأنه رجل الروح الموهوب فى عالمها، يدرك مالا- يدركه العامه، و يشهد مالا يشهده المجاهدون. و هم كلاب على بابه فى صوره من صور الاخلاص المعهوده فى الكلب، يقيمون على بابه رغبه فى الاستهداء بهديه، و تقليده فى سلوكه كما كان الشأن فى مريدى العلم و السلوك فى الصدر الأول. و الى جانب هذا و ذاك هو باب الكرم، يقصده طلاب الرفد فى العصر الحاضر كما كان يرجو رفده العفاه فى حياته، و ما أعجب أن تحيا الخلائق بعد وفاه الامام فيعيش الآلاف على العطاء المبذول عند مسجده حيا فيه، كما كان يعيش الناس على عطائه الشخصى فى حياته. أليس ذلك من مواريث الصدق فى السلوك، و أثره الفعال من عالم البرزخ؟! [صفحه ۴۳]

عالم أهل البيت

كان العلم من خصائص أهل البيت، فكانوا مرجع الخاص و العام فيه بحكم البيئه التى عاشوا فيها، و بحكم القدوه العمليه التى نشأوا عليها منذ نعومه أظفارهم. و كان الامام السجاد أفقه أهل زمانه، و شهد بذلك الامام الزهرى الذى كان يدمن الجلوس اليه، و يفيد من علمه الغزير. و

الاجماع على أنه كان قليل الحديث، و كان ثقه مأمونا عاليا رفيعا فى الاسناد. أما قله حديثه فترجع الى أنه لم يكن بحاجه الى الروايه و تتبع الحديث لأنه ربيب السنه، و شاهد أصولها فى سلوك أبيه و فى سلوك الصحابه الذين شهدهم، و فى سلوك أمهات المؤمنين. كان قد روى الحديث عن أبيه الامام الحسين بن على رضوان الله عليهم، و عن عمه الامام الحسن بن على، و عن ابن عباس و المسور بن مخرمه و أبى هريره و جابر و صفيه، و عائشه، و أم سلمه، أمهات المؤمنين رضى الله عنهم جميعا. و روى عنه جماعه منهم: بنوه زيد، و عبدالله، و عمر و أبوجعفر الفقيه محمد بن على، و من غيرهم: زيد بن أسلم، و طاووس بن كيسان، و الزهرى، و يحيى بن سعيد الأنصارى و غيرهم. و يقول أبوبكرن أبى شيبه فى جوده سنده: «أصلح الأسانيد كلها: الزهرى عن على بن الحسين، عن أبيه عن جده». و كان العصر غنيا بالفقهاء الذين كانوا يرجعون اليه، و يتتبعون فتاواه فى المعضلات. و من عجيب الأمور أن كثيرا من الفقهاء الكبار ماتوا فى السنه التى مات فيها شيخهم على بن الحسين، حتى أطلق المؤرخون على تلك السنه «سنه الفقهاء»، و منهم: سعيد بن جبير، الذى قتله الحجاج، و سعيد بن المسيب، و طلق بن حبيب الغنرى، و عروه بن الزير، و أبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث. و كان زين العابدين رغم جلاله قدره فى العلم، و سيادته و شرفه بين العرب لا يأنف من تتبع مصادر العلم الأخرى، فيجلس الى غيره متعلما أو مستفيدا لا يجد فى ذلك [صفحه ۴۴] من القصاصه ما يجده الكثيرون من علماء

العصر الحاضر المحدثين. و كان الامام كما قلنا من قبل و نقول الآن: ذا سلوك هادف فى جميع الميادين، يريد لنفسه منه خيرا، و يقاوم به شرا قد ذاع بين الناس، أو مبدأ تبناه خلفاء بنى أميه، و يذكر الجمهور بتعاليم الاسلام التى كادت تضيع بين تلك البدع الجاهليه. كان - كما قلنا - لا يرى القتال مجديا، و ذلك لضعف الوازع الدافع الى الجهاد فى سبيل الله، وقوه الوازع الدافع الى اجابه مطالب النفس، و لذلك كان ينهى أهل خراسان و غيرهم عن القتال حينما كانوا يشكون اليه المظالم التى ينزلها بهم حكام بنى أميه، و مع ذلك كان يرى أن احياء مبادى الاسلام بالقدوه الحسنه، و الجهر بالسنن و الآداب الاسلاميه فى مواجهه الانحراف عنها قوه لا تقل بلاغه عن السيف كان - يرتاد مجلس عبدالله بن عباس كثيرا للافاده من علمه، و كان ابن عباس يحبه حبا شديدا، و يروى اسحق بن الغيرار بن حريث: أنه كان عند ابن عباس، فجاء على بن الحسين، فقال له ابن عباس: «مرحبا بالحبيب ابن الحبيب». و ليس فى مجالسته لابن عباس غرابه، فهو هاشمى له مكانته فى العلم، و مقامه بين الصحابه، و منزلته من رسول الله صلى الله عليه و سلم، ولكن الغريب الذى يستحق الانتباه هو قصده الى مجالس الموالى و العلماء، و اصراره على اعلان سلوكه هذا مع هؤلاء العلماء، فما ذا كان هدف الامام من ذلك؟ كان الأمويون يحتقرون الموالى ولو كانوا علماء، و كانوا يسلكون معهم مسلكا مجافيا لظاهر أحكام الاسلام و لروحه معا، و كانوا يرغمونهم على الحرب رجالا، و غيرهم من العرب يحاربون ركبانا، بل ان الحجاج قد اقتضى الجزيه من مسلمى الموالى بعد اسلامهم،

و كان الجهل قد بدأ يسيطر على الخلفاء و على أبنائهم، حتى لقد روى الشعرانى و غيره: أن سليمان بن عبدالملك جلس الى عطاء و كتب عنه المناسك ثم التفت الى بنيه و قال لهم: «تعلموا العلم، فانى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود». و من المصادقات الغريبه أن كبار العلماء فى ذلك العصر كانوا من المولى: كالحسن البصرى، و طاووس، و سعيد ابن جبير، و غيرهم. و كان السلوك الأموى ازاء العلماء من غير العرب شائنا، اذ كان يهدد باندثار العلم، ويؤثر الأرستقراطيه على شرف العلم، و يفرق بين أبناء الدين الواحد، و يبعث [صفحه ۴۵] العنصريه من مكمنها: حتى تحولت فيما بعد الى شعوبيه كان لها آثار سيئه على بناء الدوله و وحدتها. لذلك كان الامام يرى: أن قدر الانسان فى علمه و سلوكه، مولى كان أم حرا، قرشيا كان أو فارسيا، فالاسلام هو الأصل الذى محى الفوارق العنصريه، و قبر الأرستقراطيه الماديه، و علا على كل القيم الجاهليه و غير الجاهليه التى لم يقرها قانون السماء. و نفذ الامام السجاد ما آمن به، و جلس الى غير العرب من العلماء متعلما و مستفيدا، و قصد من ذلك فوق احياء أصل اسلامى هام هو المساواه بين الجميع فى الحقوق، و اعتبار العلم و التقوى مقياسا للفضيل دون سواهما، قصد الى جانب ذلك أن يصفع الشيعه الذين كانوا يرتفعون بالأئمه فوق المستوى البشرى، و يرون أنهم مصدر العلم، و العلم كله امداد منهم و فيض، و تلك فريه أشد ضررا على الاسلام من التفرقه العنصريه، اذ أنها تفتح بابا للغرائب و العجائب و الأساطير التى تنسب الى الأئمه فى مجال العلم و المعرفه.

و كـان هنـاك اعتراض على الامـام السـجاد من الخلفـاء و عمـالهم، و من النـاس بوجه عـام فى مجالسـته للعلمـاء من الموالى، و الاستماع اليهم، ولكنه لم يأبه لتلك الاعتراضات، بل أخذ يرد عليها بما يعيد المعترضين الى الصواب من أصول الاسلام و آدابه. لامه نافع بن جبير كما يروى أبونعيم فقال له: غفر الله لك، أنت سيد الناس و أفضـلهم، تجلس الى هذا العبد فتجلس معه؟ يعنى زيد بن أسـلم، فقال الامام: «ان هذا العلم ينبغى أن يتبع حيث كان». و كان يبدو من سـلوك الامام هنا ما يشـبه التحدى، و يروى محمـد بن عبـدالرحمن المـدينى فى ذلـك: أنه كـان يتخطى حلق قومه حتى يأت زيـد أسـلم فيجلس معه، ثم يقول للناس: «انما يجلس الرجـل الى من ينفعه فى دينه». و كـان يجلس الى مولى عمر بن الخطـاب فقال له رجل قرشـى: تـدع قريشا و تجلس الى عبد بنى عدى؟ فقال الامام: «انما يجلس الرجل حيث ينتفع». و بهذا السـلوك الاسـلامى الأصيل استطاع الامام أن يرتفع بالعلماء الى أماكنهم التى أقرها لهم الاسـلام، كما استطاع أن يحتفظ بتراث هؤلاء العلماء بعد ما كادت عنصريه بنى أميه أن تقضى عليه، و تقضى على الكثير من آداب الاسلام معه. و من يدرى ماذا كان يحدث لو لم يفعل الامام ما فعل؟ أليس من الجائز أن يكون [صفحه ۴۶] الاسـلام هو ما يقرره الجهلاء من مبادى ء تخـدم أهواءهم بعـد أن تنجح الدعايه و وسائل الاعلام الأمويه فى احتقار مصادر العلم غير العربيه، بل و غير القرشـيه، ثم غير الأمويه ان وجـدت سبيلا خاليا من العوائق لنشـر تلك الـدعوه الخبيثه؟ بل ان هذا هو الذى يؤكده واقع بنى أميه، و

تصرخ به عواطفهم، ولكن زين العابدين استطاع بالحكمه أن يوقف هذا التيار المدمر، و أن يجعل من نفسه درسا لغيره من الطلاب يردد على مدى العصور: ان العلم يجب أن يتتبع حيث كان مصدره، دون نظر الى عربى أو غير عربى، فالعنصريه مخالفه للاسلام ولو كان هوى الخلفاء معلقا بها، فالاسلام يحكم الخلفاء، و ليس لخليفه أن يحكم الاسلام. و فى المجال الشيعى روى الأعمش عن مسعود بن مالك قال: قال لى على بن الحسين: أتستطيع أن تجمعنى على سعيد بن جبير؟ فقلت: ما تصنع به؟ فقال: أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها و لا ننقصه، انه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء، و أشار بيده الى العراق. بل لقد كان رضى الله عنه يفعل أحيانا ما يفعل الطالب البادى ء، فيسعى الى العلماء، و يجلس كما يجلس الطالب، و ينتظر حتى ينتهى الشيخ من شأنه، يريد بذلك أن يضرب المثل الأعلى فى الأدب بين يدى العلماء. روى ابن سعد أن الامام زين العابدين جاء الى عبيدالله بن عتبه بن مسعود يسأله عن بعض الشى ء، و أصحابه عنده و هو يصلى، فلما قضى صلاته أقبل عليهم فقال له أصحابه: ابن بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم جاءك لسألك عن بعض الشى ء، فلو أقبلت عليه فقضيت حاجته ثم أقبلت عليما أنت فيه؟ فقال: أيهات، لابد لمن طلب هذا الأمر أن يتعتى. و تلك ثمره من ثمرات جهد الامام فيرفع معنويات علماء العصر، فعبيدالله يعلم كغيره من العلماء أن زين العابدين له من العلم ما ليس لهم، ولكنه قد يحتاج اليهم فى روايه السنه بعض الحاجه، ولو أنه بعث الى أحدهم لجاءه يسعى اعترافا بفضله، و عرفانا لقدره،

ولکنه کـان حریصـا کل الحرص علی الاحتفاظ باحترام العلماء و مکانتهم بین الناس حتی لا یمتهن العلم بامتهان العلماء. و کان الامـام زین العابـدین حریصـا کـل الحرص علی رعایه طقوس معینه لمجالس العلم قوامها و مرجعها السـنه التی وردت عن النبی صلی الله علیـه و سـلم، و هـدفها التمـاس برکه المجلس و حسن [صـفحه ۴۷] التوفیق للافـاده، و احیاء للقرآن، و تأکیـدا لحاجه الانسان و فقره الی الله أن یرزقه العلم و العمل. قال یزید بن حازم: رأیت علی بن الحسـین و سـلیمان بن یسار یجلسان بین القبر و المنبر یتحدثان الی ارتفاع الضـحی و یتذاکران، فاذا أراد أن یقوما قرأ علیهم عبدالله بن أبی سلمه سوره، فاذا فرغ دعوالله. و تلک سنه من سنن رسول الله صلی الله علیه و سلم تؤکد وجوب ذکر الله عند بدایه المجلس و فی نهایته، أما القرآن فهو الذکر الحکیم فلیس فی قراءته عند انتهاء المجلس بدعه. [صفحه ۴۸]

مکانه السیاسی

مکان أی زعیم فی السـیاسه یرتبط بمقامه فی مجتمعه لا یریم عنه، مضافا الی موهبته السیاسـیه التی تهدف الی قیاده الشـعب نحو السـلام و الأمن و الحق و العـدل. فاذا کان للرجل دربه فی القیاده، و ایمان بالعـدل، و رغبه فی سـیادته، و لیس له مقام اجتماعی یجمع الیه القلوب، أو کان له حب و اجلال فی القلوب، و لم تکن له دریه فی السیاسه، و لا رغبه فی سیاده الحق و العدل، فلیس مؤهلا لمکان سیاسی مرموق، و لا هو صالح فی واقع الأمر لولایه أمور الناس. أما مقام زین العابدین فی المجتمع العربی کله فهو واضح من قول الجاحظ - و هو عثمانی النزعه -: «لم أر

الخارجی فی أمره الا کالشیعی، و لا العامی الا کالخاصی». و هو شهاده حق من عثمانی کان یصح أن ینقم علی الامام شیئا، لولا أن الامام کان علی خلائق الشرف التی لا یجد فیها عدوه مغمزا و لا فرصه لتشهیر و لا لتشویه. بل ان شاعرا کالفرزدق باعتباره متکسبا بشعره و مدائحه و أهاجیه علی السواء عرض نفسه لأوخم العواقب حینما وجد تهاونا فی حق الامام من جانب هشام بن عبدالملک قبل أن یلی الخلافه فی واقعه طریفه یحسن أن نسوقها. فقد حج هشام، فاجتهد أن یستلم الحجر الأسود فلم یستطع حتی نصب له منبر، فاستلم الحجر و جلس علیه. و اجتمع الناس حوله، فجاء علی زین العابدین، فتفرق الناس عن هشام، و وقفوا للامام و تنحوا حتی استلم الحجر، فقال له أهل الشام (نفاقا له): من هذا؟ فقال: لا أعرفه، فقال الفرزدق: لکنی أعرفه، هذا علی بن الحسین. ثم أنشد قصیده طویله نختار منها: هذا الذی تعرف البطحاء وطأته و البیت یعرفه و الحل و الحرم هذا ابن خیر عبدالله کلهم هذا التقی النقی الطاهر العلم اذ رأته قریش قال قائلها الی مکارم هذا ینتهی الکرم ینمی الی ذروه العز التی قصرت عن نیلها عرب الاسلام و العجم یکاد یمسکه عرفان راحته عند الحطیم اذا ما جاء یستلم [صفحه ۴۹] یفضی حیاء و یفضی من مهابته فلا یکلمه الا حین یبتسم بکفه خیزران ریحها عبق من کف أروع فی عرنینه شمم ینجاب نور الهدی من نور رغرته کالشمس ینجاب عن اشراقها الغیم ان عد أهل التقی کانوا أئمتهم أو قیل من خیر أهل الأرض قیل هم هذا ابن فاطمه ان کنت جاهله بجده أنبیاء الله قد

ختموا من جده و ان فضل الأنبياء له و فضل أمته و أنت لها الأمم من معشر حبهم دين و يفضهم كفر و قربهم منجى و معتصم يستدفع السوء و البلوى بحبهم و يستزاد به الاحسان و النعم مقدم بعد ذكر الله ذكرهم فى كل حكم و مختوم به الكلم و ليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت و العجم فغضب هشام، و أمر بحبس الفرزدق بعسفان بين مكه و المدينه، فلما بلغ على بن الحسين ذلك بعث الى الفرزدق باثنى عشر ألف درهم، فلم يقبلها و قال: انما قلت ما قلت لله عزوجل، و نصره للحق، و قياما بحق رسول الله صلى الله عليه و سلم، فأرسل اليه يقول: قد علم الله صدق نيتك فى ذلك، و أقسمت بالله عليك لتقبلنها. فتقبلها ثم جعل يهجو هشاما، و كان مما قال فيه: أيحبسنى بين المدينه و التى اليها قلوب الناس يهوى حنينها يقلب رأسا لم يكن رأس سيد و عينين حولاوين باد عيوبها و حتى الأمويون أنفسهم كانوا يحسون حاجتهم الى رأيه، فيروى ابن كثير: أن عبدالملك بن مروان استقدمه الى الشام فاستشاره فى جواب ملك الروم عن بعض ما كتب اليه فيه من أمر السكه، و طراز القراطيس. و لم تكن الجائزه التى بعث بها الامام الى الفرزدق من تلك الجوائز التى يرصدها السياسيون استغلالا لمواقع التأييد الشعبيه، بل كانت بمثابه التعويض عما لحق الفرزدق من خسائر و ما ينتظره من أخطار محتمله لاقدامه على تلك المواجهه الخطيره لولى العهد، فليس من خلائق الامام استغلال مواقع التأييد، و ليس من خلائقه العمل على تكوين خلايا مؤيده له، بل لم يكن من آماله أن

يتولى الحكم، فلا تشهد واقعه من [صفحه ۵۰] حياته بأنه كان يسعى الى الزعامه و ان سعت اليه فى كثير من الأحوال. كان يؤيد الحق و يسعى اليه، و يجهد نفسه فى سبيل تأصيله بالقدوه الحسنه و ان جار على مؤيدين من الشيعه أو صدمهم فى عقائدهم، و كان يقاوم الباطل فى مختلف صوره و ان كان صادرا من أشد الناس فدائيه لآل البيت، و بهذا وحده كان مؤهلا للزعامه السياسيه، متسما بسمات الزعيم الذى تخلد مبادئه من حيث يتصرم أمر خصومه تحت تأثير الحق الذى تبناه مدى حياته. لم يكن يحرص على جمع الأنصار المبطلين كما يحرص محترفوا السياسه فى أنحاء العالم الحديث، و فى ربوع دوله الاسلام فى عصره، و آيه ذلك أن الشيعه كانوا يتكاثرون متأثرين بالسريه التى أضفوها على مذهبهم، و بالأساطير التى نسبوها الى الأئمه حتى أغروا الناس بالاجتماع عليهم، ولكن الامام أعلن نفوره منهم حين قال: «ما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا». و كانت حركه المختار الثقفى حركه فدائيه يمكن استقلالها و تعديل منهجها للتخذ طريقها الى النجاح، و كان المختار نفسه يرغب فى زعامه الامام السجاد حيث خذله ابن الحنفيه هو الآخر بعدم تأييده فى آرائه الأسطوريه، و قد أرسل المختار الى زين العابدين مائه ألف دينار فأبى أن يقبلها، لأنه أدرك أنها محاوله لتأليف قلبه نحوه، و لقد أعلن الامام السبب فى عدم تأييده للمختار حينما وقف على باب الكعبه؟ و لعن المختار بعد قتله، فقال له رجل: تلعنه - جعلنى الله فداك - و انما ذبح فيكم؟ فقال: «انه كان كذابا يكذب على الله و رسوله». كانت دعوه المختار الممثله فى شعاره الظاهر: «يالثارات الحسين»،

حکـا یغلفه الباطـل الممثـل فی دعوی النبوه، و یحـدده الأمل الشخصـی، و الوصولیه الرخیصه، و کان یتـذرع بعض الحق وسائل الاعـداد، من مثـل رد اعتبار الموالی، و جعلهم قوام جیشه، ولکن الباطل فی الهـدف یعکر الحق فی الوسائل، و الامام لا یریـد الا الحق الشامل البری ء عن الهـدف الشخصـی، و الأطماع الفردیه، الحق الـذی یبـدأ من الاسـلام، و ینتهی الیه، فلا شـی ء یعنیه الا الاسـلام وحده. و لم یکن الامام من ذلک النوع من الزعماء الذین تجوز علیهم حیل الطامعین، و ألاعیب السیاسه التی تشبه الی حد کبیر ألا عیب الدبلوماسیه الحدیثه، فهو صاحب ذکاء ألمعی موروث عن جده علی و عن أبیه الحسین، و عن خلاصه البشر جده الأعلی [صـفحه ۵۱] صـلوات الله و سـلامه علیه. و هو من طراز «دسـتوری» فرید بین عواصف الفتن التی شـملت عصـره، و اجتاحت بین زوابعها کثیرا من العلماء و رجال الفکر، ولکنه بقی دسـتوریا قویا لا یفرط فی أقل مواد دسـتوره و دستور الأمه شأنا فی أنظار الناس، و من هنا کما قلنا زعیما بفطرته و ان لم یکن علی کرسـی الخلافه المدخول. و ما من واقعه فی حیاه الامام الا و هی تعلن مواهبه السیاسیه النادره فی المجال الدسـتوری، کما تعلن زعامته الکامنه فی أغوار شخصـیته فلا تسـتطیع العواصف أن تنـال من جوهرهـا و لاـ نقائها قلیلا و لا کثیرا. کان سـلوک الأمویین نحو أهل بیته و نحو أبیه یغری من لیس علی شاکلته من قوه الایمان بالدسـتور باستغلال أی فرصه و أی بادره و أی موقف یزعزع من سلطان خصمه، و یصعد به الی الخلافه حتی یأخذ الثأر لنفسه و لأهل بیته، ولکنه لم یفعل لأن

الدستور لا- يقول بالخروج على الحكام بالسيف. و كان هناك بعض مواقف شعبيه عانى منها فى نفسه، ولو أنها أصابت غيره لأغرى باذلال هذا الشعب انتقاما لنفسه، ولكن مصدر الالتزام عنده هو: الله، و الحق، و ليس فى شرعه الله و لا فى شرعه الحق انتصار للنفس، بل ان المواه و المدارك و الجهود كلها فى الدستور الالهى الذى دان به يجب أن توجه نحو نصره الله ممثله فى نصره دين الحق. و هذا هو سر شخصيه الامام فى ميدان الزعامه الدينيه و السياسيه معا. لقد كان مثل المؤيدين لبنى أميه مثل الكلاب المسعوره يغريها أصحابها بالعبث ببعض الناس لمجرد التسليه، فتتجاوز هذا النطاق الى التمزيق و النهش ارضاء لساستها. و كان مثل الامام و المتعقلين ممن حوله كالأسود تكبح جماح نفسها فلا تعرض للهزيل و لا تزاحم الكلاب على فرائسها. لقد كان الامام زين العابدين مع أبيه فى المعركه، ولكنه كان مريضا نائما، فلما قتل الامام الحسين قال شمر بن ذى الجوش: اقتلوا هذا. فقال رجل من أصحابه: سبحان الله اتقتلون رجلا مريضا فتى حدثا لم يقاتل؟ و جاء عمر بن سعد فقال: لا تعرضوا لهذا و لا لهؤلاء النسوه. و ثار الجدل حول مصير زين العابدين، و مصير سيدات آل البيت و أوانسه، و لندع الامام نفسه يروى ما حدث له آنذاك كما أثبته ابن سعد لندرك المدى البعيد الذى [صفحه ۵۲] وصلت اليه شخصيته من المتانه و القوه و عدم تأثير الباطل فى نفسه بالجور على الحق انتصارا لها كما يفعل الكثيرون من أبطال السياسه المعدودين فى التاريخ. قال الامام: «فقبلنى رجل منهم، و أكرم نزلى، و اختصنى، و جعل يبكى كلما خرج و دخل،

حتی کنت أقول: ان یکن عنـد أحـد من الناس خیر و وفاء فعنـد هـذا الرجل. الی أن نادی منادی ابن زیاد: ألا من وجـد علی بن الحسـین فلیـأت به، فقـد جعلنـا فیه ثلاثمـائه درهم. قـال: فـدخل والله علی و هو یبکی، و جعل یربط یـدی الی عنقی و هو یقول: أخـاف، فـأخرجنی والله الیهم مربوطا حتی دفعنی الیهم، و أخـذ ثلاثمائه درهم و أنا أنظر الیها. فأخـذت و أدخلت علی ابن زیاد، فقال، ما اسمک؟ قلت: کان لی أخ یقال له علی أکبر منی قتلته الناس قال: بل الله قتله. قلت: «الله یتوفی الأنفس حین موتها». فأمر ابن زیاد بقتله. فصاحت زینب بنت علی: یا بن زیاد حسـبک من دمأننا، أسألک بالله ان قتلته أن تقتلنی معه. فترکه. فلما أتی یزید بن معـاویه بثقل الحسـین بن علی و من بقی من أهله فأدخلوه علیه قام رجل من أهل الشام فقال: ان سـباءهم حلال لنا. فقال علی بن الحسین: کذبت ولؤمت، ما ذاک لک الا أن تخرج من ملتنا، و تأتی بدین غیر دیننا. فأطرق یزید ملیا ثم قال للشامی: اسکت، و قـال لعلی بن الحسـین: ان أردت أن تقیم عنـدنا فنصـل رحمـک، و نعرف لـک حقک، و ان أحببت أن أردک الی بلادک و أصـلک، فقال: بل تردنی الی بلادی. فرده. أما الذهبی فی تاریخ الاسـلام فیستعصـی الصور الألیمه فی المأساه فیقول: جاء مخفر بن ثعلبه العائـذی برأس الحسـین الی یزیـد و قال: جئتک برأس أحمق الناس و ألأمهم، فقال یزید: ما ولدت أم مخفر أحمق و لا ألام، ولکن الرجل لم یقرأ کتاب الله: «تؤتی الملک من تشاء، و تنزع الملک ممن تشاء». و هی قوله لئیمه من

یزید فیها توریه واضحه، و تأین علی رأی مخفر بن ثعلبه من طرف خفی، و لیس ذلک ببعید علی مثله ممن فسق عن دین الله علی الصور المرویه عنه فی التاریخ. و یسوق الذهبی روایه أخری یقول فیها: ان یزید أخذ یعبث فی رأس الحسین رضی [صفحه ۵۳] الله عنه بقضیب من حدید فی یده، ثم بکی و قال: نقلق هاما من رجال أحبه علینا و هم کانوا أعق و أظما أما والله لو کنت صاحبک ما قتلتک. فقال علی بن الحسین: لیس هکذا. قال: فکیف یابن أم؟ قال: «ما أصاب من مصیبه فی الأرض و لا فی السماء الا فی کتاب من قبل أن نبرأها». و کان عنده عبدالرحمن بن الحکم، أخو مروان بن الحکم فقال: لهام بجنب الطف أدنی قرابه من ابن زیاد العبد ذی النسب الوغل سمیه أمسی نسلها عدد الحصی و بنت رسول الله لیس لها نسل فضرب یزید صدره و قال: اسکت. تلک وقائع المأساه التی عاشها الامام السجاد زین العابدین و هو شاب لم یتجاوز الثالثه و العشرین من العمر، و هی فتره من الحیاه تزخر عاده بالآمال و الطموح، و حب الزعامه، و الاندفاع نحو الثأر، و الجزاء بأکثر من الذنب، ولکن فی غیر سلیل بیت النبوه المجمع علی فضله و تقواه و تفانیه فی الاسلام، و الزعامه الاجتماعیه القائمه علی الدستور وحده. و فی الجانب الأموی المقابل یصرخ «ازدواج الفکر» معلنا عن نفسه فی صراحه لا مواربه فیها. فالرجل الذی آوی الامام فی بیته حرصا علی حیاته انما کان یحدوه الطمع فی الجعل الذی کان من المؤکد اعلانه لمن یدل علیه أو یأتی به، و لا زالت فی

نفسه بقيه من أسى على ما حل بآل البيت، و لذلك كان تصرفه مزدوجا بين الأسى و بين الفرح. الأسى على ما حل أعز الناس،و ألصقهم برسول الله صلى الله عليه و سلم، و الفرح بالمال المواتى فى عصر كان يقاس فيه الرجال بالجاه و المال. و كان ازدواج الفكر يصرخ كذلك بين جند بنى أميه فمثلا فى الخلاف حول مصير الامام، كما صرخ مره أخرى فى رغبه بعض المسلمين فى استحلال بنات النبى صلى الله عليه و سلم كأسرى حرب، و صرخ مره ثالثه فى رأس الدوله يزيد بن معاويه ممثلا فى بكائه، و فى عبثه فى رأس أحب الناس الى النبى صلى الله عليه و سلم بقضيب من حديد. ولكن الامام كان بريئا طاهرا من هذا المرض العقلى المقيت و هو: ازدواج الفكر». فقد كان فى كل تصرفاته ازاء المأساه يلتزم بالقرآن و بدستور الله، و يتخذ منه الحاكم الأول على قوله و فعله، و لم تتوزعه الأهواء و الأفكار السوداء من جهته، و الاسلام من [صفحه ۵۴] جهه أخرى كما كان عليه خصومه الأمويون. فماذا كان موقفه اذن؟ كان أول ما أعلنه على هدى من مصدر الالتزام الذى يدين به: عدم تشجيع الخروج بالسيف، و كان يصد كل من تساورهم نفوسهم أن يثوروا بالسيف، و يروى ابن سعد أن قوما من أهل خراسان جاءوه فشكوا اليه ظلم و لا تهم، فأمرهم بالصبر و قال لهم: «انى أقول لكم كما قال عيسى بن مريم: (ان تعذبهم فانهم عبادك و ان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم (۱۱۸))[المائده: ۱۱۸] و نفس مصدر الالزام الالهى هو الذى دعاه الى الصلاه خلف أئمه بنى الا أميه، و

يقول ابنه أبوجعفر: «انا لنصلى خلفهم بغير تقيه، و أشهد على على بن الحسين أنه كان يصلى خلفهم فى غير تقيه». فليست التقيه - و هى نوع من المداراه - هى التى دعت الامام الى الصلاه خلفهم، و مالها تكون تقيه و هى من قانون الاسلام و دستوره حفظا لوحده الأمه، و نأيابها عن الفتن، و ايثارا للاصلاح عن طريق النصح و القدوه الحسنه المضاده للقدوه السيئه السائده فى العصر. من أجل هذا ان يحث على: الأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر ما وجد السبيل اليه، و لا يبيح السكوت عن الأمر و النهى و العدول الى الانكار بالقلب الا عند الضروره القصوى. و يعلن رأيه قائلا: «التارك للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كنا بذ كتاب الله وراء ظهره، الا أن يتقى منه تقاه. قيل: و ما تقاته؟ قال: «يخاف جبارا عنيدا أن يفرط عليه أو أن يطفى». و لقد نجحت سياسه الامام نجاحا باهرا، اذ كان عدد كبير من العلماء يفنون فى الأمر و النهى، حتى لقد تعرضوا للقتل و التشريد و الصلب، و كونوا خطرا حقيقيا على حكم الظلم و الطغيان، و من أشهر هؤلاء العلماء بعد الامام: سفيان الثورى الذى أرق مضاجع الخلفاء بسلوكه الاسلامى الأصيل. كانت هناك فكره شيعيه تقول بالرجعه، و تعنى بعث الامام القائم الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا و ظلما من الموت، و تحقيق نصره على الظلمه، ثم تفرقت السبل بالشيعه فيمن يكون هذا القائم المبعوث، و يبدو أن الأنظار كانت موجهه نحو الامام على باعتباره رأس العلويين، وفتى فريش و فارسها غير منازع. [صفحه ۵۵] و تلك فكره تغرى أصحاب المطامع من الوصوليين

بتشجيعها و تجميع الناس حولها، و اعدادهم لمعركه يفيد منها الطامع على أى صوره من صور الافاده: اما قضاء على الخصم المنافس، و اما تأريقا لمضجعه، و اقلاقا لسكينته، و كلاهما نصر على أى حال. ولكن الامام الذى لم يلتزم نحو نفسه بشى ء، و وجه التزامه كله نحو الحق و العدل و الاسلام رفض هذه الفكره و خيب آمال القائلين بها حينما جاءه رجل فسأله: متى يبعث الامام على؟ فقال: «يبعث يوم القيامه، و تهمه نفسه». و هكذا لم يكتف الامام بمقاومه فكره الرجعه وحدها، بل انه قاوم فكره التأليه التى كانت تغزو عقول الشيعه بقوله للسائل: و تهمه نفسه. لأن هناك فكره تبناها الشيعه و برزت عند الاسماعيليه فيما بعد تقول: ان القائم هو الذى يتولى الثواب و العقاب يوم القيامه. من هذا المنطلق الاسلامى الأصيل الموحد الهدف و الوسيله كانت عبقريه السجاد تلعب دورها البناء فى سياسه دوله الاسلام، اذ أمن الأمويون جانبه، و اطمأنوا الى براءته من أطماع الحكم، فتركوه لأن منهاجه لا يهدد عرش الأمويين فى زمنه على أى حال، بل وصلوه و أحبوه، و كان له من هذا الحب و الأمن وسيله الى توسيع نطاق دعوته الاصلاحيه، و اتصاله بأوساط شعبيه و علميه لم تكرر تتهيأ له لو أنه شجع الباطل للوصول الى الحق. و مع هذه المسالمه النابعه أساسا من تعاليم الاسلام و قانونه الذى لا يعتريه الباطل، فلم يسكت عن الحق المهدر لآل البيت، لأنه اعتبر نفسه مسلما وجب عليه الدفاع عن آل بيت النبى صلى الله عليه و سلم كما أمر القرآن و أكدت السنه النبويه. روى ابن سعد عن المنهال بن عمر و قال: دخلت على على

بن الحسين، فقلت له: كيف أصبحت أصلحك الله؟ قال: ما كنت أرى شيخا من أهل المصر مثلك لا يدرى كيف أصبحنا، فأما اذ لم تدر أو تعلم فسأخبرك: أصبحنا فى قومنا بمنزله بنى اسرائيل فى آل فرعون، يذبحون أبناءهم، و يستحيون نساءهم، و أصبح شيخنا و سيدنا (يعنى الامام عليا) يتقرب الى عدونا بشتمه أو سبه على المنابر، و أصبحت قريش تعد أن لها الفضل على العرب لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منها، لا يعد لها فضل الا به، و أصبحت العرب مقره لهم بذلك، و أصبحت العرب تعد لها الفضل على العجم، لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منها، لا يعد لها فضل الا به، و أصبحت العجم [صفحه ۵۶] مقره لهم بذلك. فلئن كانت العرب صدقت أن لها الفضل على العجم، و صدقت قريش أن لها الفضل على العرب، لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منها، فان لنا - أهل البيت - الفضل على قريش، لأن محمدا صلى الله عليه و سلم منا. فأصبحوا يأخذون بحقنا، و لا يعرفون لنا حقا، فهكذا أصبحنا، ان لم تدر كيف أصبحنا». قال: فظننت أنه أراد أن يسمع من فى البيت. هو منطق الحق و العدل، و منطق الدستور على أى حال، و ان كانت العائده من هذا المنطق السوى تعود على آل البيت، و على الامام السجاد نفسه لأنه منهم، فالله تعالى يقول أمرا لنبيه أن يبلغ أمته: (قل لا أسألكم عليه أجرا الا الموده فى القربى)[الشورى: ۲۳] و النبى صلى الله عليه و سلم يقول: «أحبوا آل بيتى لحبى». و لا خير فى أمه تهدر حقوق آل بيت نبيها، بل هو شر

سرعان ما يتطور الى اهـدار حق النبى نفسه، و من ثم يهدر حق الدين و دستور القرآن. فالمسأله هى الاسـلام أولا و أخيرا، و ان بدت فى ظاهر النظر خاصه بأهل البيت النبوى أنفسهم. و الامام يشير فى قوله هذا الى أساس الظلم الذى قام عليه حكم بنى أميه، و هو: استغلال حقوق الغير، و عـدم الوفاء بحق هـذا الغير الـذى استغلوه. أى: انه الغـدر و الخداع الذى تقوم عليه أصول الحكم الأـموى ممثلاـ فى التعصب للجنس العربى باعتبـاره نبع النبوه، و التعصب لقريش باعتبارهـا الأـم التى تفرع عنها نبى الله صـلى الله عليه و سـلم، فاذا كان النبى صـلى الله عليه و سـلم هو مصـدر شـرفهم بأين حقوق أبنائه و ذريته، و هل فى شـريعه الحق أن يذبح أبناؤه الـذين يكونون جزءا رئيسـيا من هذا الشـرف الذى يدعيه بنوأميه لأنفسـهم؟ كان الأمويون حقا يبطنون الغدر، و فى الوقت نفسه يسـتغلون الاسـلام و رسوله فى سبيـل الوصول الى مـآربهم، و كـان آل البيت فى مواقعهم الاسـلاميه الأصـيله لا يتحولون [صفحه ۵۷] عنهـا الى أى نوع من الوصوليه و النفع الفردى. كانت فتنه ابن الزبير بمكه، و كان الامام يتخوفها و يتوجس منها شـرا على الاسـلام لا على نفسه، لأنها فى الظاهر تخـدم مصالـح آل البيت بمحاولته القضاء على بنى أميه. و قد علل الامام حزنه الذى كـان يسـتبد به أيامهـا فى روايه رواهـا أبونعيم و ابن كثير و غيرهما، قالوا: انه كان حزينا يسـتند الى حائط فرآى رجلا عليه ثياب بيض فسأله عن سـبب حزنه، أهو من أمر الرزق، أو من أمر الـدنيا؟ فقال الامام: ما على هـذا أحزن، انما أتخوف فتنه ابن الزبير. و لم يكن خوفه من فتنه

ابن الزبير موجها نحو نفسه، و انما كان - كرايه - موجها نحو مصلحه الاسلام العليا. و قد كان ما تخوفه الامام فعلا، اذ ضربت الكعبه بالمجانيق و هدمت، و انتهك الحرم، و استحلت الكعبه و لم تحل لأحد الا للبنى صلى الله عليه و سلم ساعه من نهار يوم الفتح دخل حرمها جيش الاسلام الفاتح للقضاء على الكفر، ثم حال عبدالملك بين المسلمين و بين الحج الى الكعبه أيام ابن الزبير، و شجع فكره الحج الى قبه الصخره فى بيت المقدس، الأمر الذى دعا الكثير من المفكرين الى القول بعداء الأمويين للاسلام و لرسوله، لأنه قضى على أرستقراطيتهم فى مكه، فحاولوا احياءها فى بيت المقدس البديل من الكعبه. بل ان المقدسى يروى فى كتابه «مثير الغرام» أن عبدالملك و كل بالصخره خدما من اليهود أعفاهم هم و ذرياتهم من الضرائب المفروضه على أمثالهم، كما أنفق عليها نفقات باهظه، و خطب الناس يحرضهم على استبدالها بالكعبه بيت الله الحرام، و أول بيت وضع للناس مباركا فيه من رب العالمين. فهل بان لنا الآن كيف استغل الأمويون حقوق النبى صلى الله عليه و سلم على العرب فى بناء مطامعهم الشخصيه، و أهدروا حقوق أبناء النبى صلى الله عليه و سلم، و بالغوا فيها حتى أهدروا حقوق الاسلام نفسه، و هدموا الدستور القرآنى فى فريضه تعتبر ركنا من أركان الاسلام قالوا فيها بأهوائهم خدمه لأهوائهم ذاتها؟ و كانت السياسه الأمويه الملتويه على الصوره التى رسمناها تحاول جاهده أن تحد من حب الناس لآل بيت النبى صلى الله عليه و سلم، و تسكت عن كل ما من يتناولونهم بالتجريح، ولكن سياسه الامام التى عرفنا أساسها الالتزامى كانت ترد هؤلاء الى

الصواب فی سرعه و نجاح. روی ابن سعد: أن هشام بن اسماعیل کان یؤذی علی بن الحسین و أهل بیته، [صفحه ۵۸] یخطب بذلک علی المنبر، و ینال من علی، فلما ولی الولید عزله، و أمر به أن یوقف للناس. فکان یقول (أی هشام بن اسماعیل): لا والله ما کان أحد من الناس أهم الی من علی بن حسین، کنت أقول: رجل صالح یسمع قوله. فوقف للناس، فجمع علی بن الحسین ولده و قرابته، و نهاهم عن التعرض له، و غذا علی بن الحسین مارا لحاجته فما عرض له، فناداه هشام بن اسماعیل: «الله أعلم حیث یجعل رسالته». و خرج یوما الی المسجد فسبه رجل، فانتدب الناس الیه، فقال: دعوه، ثم أقبل علیه و قال: «ما ستر الله عنک من عیوبنا أکثر، ألک حاجه نعینک علیها»؟ فاستحیی الرجل، فألقی الیه خمیصه کانت علیه، و أمر له بألف درهم، فکان الرجل اذا رآه قال: «أنت من أولاد الأنبیاء». و نال منه رجل یوما، فجعل یتغافل عنه، فقال الرجل: ایاک أعنی. فقال: و عنک أغضی. و لئن کان الصفح عن المسی ء مبدأ اسلامیا یفضل بکثیر مبدأ القصاص المشروع، فان قصص الصفح التی تتصل بالناحیه السیاسیه فی تاریخ الامام السجاد تشکل منهجا أکیدا هدفه تصحیح الأوضاع التی خلقتها أجهزه الاعلام الأمویه بالنسبه للعلویین و آل بیت النبی صلی الله علیه و سلم خاصه. و رغم أن عبدالملک بن مروان کان یتحفز للقضاء علی زین العابدین، و قد روی أبونعیم أنه حمله الی الشام مثقلا بالحدید، فقد نجحت سیاسه الامام فی کبت غیظ عبدالملک، و انتزعت حبه له بعد أن اقتنع بأنه لا یعمل لنفسه، و لا یرجو من وراء اتصاله

بالناس مطمعا. و لقد كان الامام ذا منطق واع مقنع فى رد المنحرفين الى الصواب، يتخذ من الحب و الوئام وسيله لتأليف القلوب، كما يتخذ من الشده أحيانا وسيله لنفس الهدف. روى أبونعيم أنه جاءه ناس من أهل العراق فقالوا فى أبى بكر و عمر و عثمان، فقال لهم: أنتم المهاجرون الأولون؟ قالوا: لا. قال: فأنتم الذين تبوأوا الدار و الايمان يقولون: ربنا اغفرلنا و لاخواننا الذين سبقونا بالايمان و لا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا؟ قالوا: لا. قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين.. اخرجوا فعل الله بكم. [صفحه ۵۹] بقى أن ننظر قليلا لنتعرف الى القيمه العمليه للمنهج السياسى الذى سار عليه الامام السجاد. هو منهج المسالمه للعدو المسلم، و انكار الذات، و اعتبار مصلحه الاسلام، و الحق و العدل هى المصلحه العليا التى لا تعلوها مصلحه بالغه ما بلغت، و التضحيه فى سبيل تهيئه المناخ الصالح لعوده الأخوه الى حالها و تلك بعينها هى سياسه النبى صلى الله عليه و سلم التى انتهجها فى صدر الاسلام الأول. و كان النبى صلى الله عليه و سلم يهدف منها الى الكشف عن وجه الاسلام الرحيم المتسامح، الذى يفسح الطريق أمام المواهب لتبرز الى ميدان العمل، فلا يطيح بها حقد أهوج، و لا تجنى عليها مطامع نفس جائره، بل لقد كان هذا السلاح نفسه هو الذى هدم كبرياء أبى سفيان جد بنى أميه، و أدال من جبروتهم. كما أن تلك السياسه من الوجهه الاجتماعيه تسل الأحقاد من الصدور مصداقا لقوله تعالى: (و لا تستوى الحسنه و لا السيئه ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوه كأنه ولى حميم (۳۴)[فصلت:

۳۴] و على المستوى الأعلى لسيايه كانت القضيه منذ الامام على الى الامام زين العابدين و من بعده هى قضيه الالتزام فهل يعتبر المسلم ملتزما نحو الاسلام وحده بقوانينه التى تنحصر فى الحق و العدل، أو من الجائز أن يعتبر الاسلام مصدرا شكليا للالتزام، بحيث يلتزم نحو بما يخدم مصالح الذات، و ينبذ منه ما يتعارض معها؟ أو بمعنى أوضح و أدق: هل يؤخذ الاسلام كما جاء فى القران الكريم، و السنه النبويه، و سلوك الراشدين المهديين دون تحوير و لا- تأويل، أو يجوز فيه التطوير و التحويل حسب مقتضيات العصر الماديه وحدها؟ لقد تبنى العلويون و آل البيت النبوى الرأى الأول، و تبنى الأمويون الرأى الثانى. و الحق أن القول بالتحرير أو التطوير أو التجديد قول لا يجوز الا فيما جد بعد عصر النبى صلى الله عليه و سلم من شئون لم تكن موجوده فى عهده من المعاملات و الفروع، و ليس خاصا بالأصول و لا متصلا بها. فالحلال و الحرام، و أصول الحكم، و المساواه بين شعوب الاسلام، و الوضوح، و التسامح، و القدوه الحسنه، و اطراح البدع، و غير ذلك من الأمور كل تلك شئون لا يجوز القول فيها [صفحه ۶۰] بالرأى، و لا يجوز عليها التبديل و التغيير و التجديد، لأنها الأصول الأولى التى يمكن للسياسه الاسلاميه أن تسود على أساسها، و التى يمكن أن تغزو قلوب غير القابلين للاسلام بادى ء النظر فلا يريدون به بديلا، و التجديد فيها هدم لوسائل انجاح الدعوه فى أقطار أخرى، و عمل على اندثار ما رسخ فى القلوب من خلائق الصدر الأول على مرور الزمن. و ما الاجتهاد المقرر فى الاسلام الا فى وسيله التنفيذ،

بشرط مراعاه مصلحه الاسلام العليا أولا و قبل كل شی ء، أما اذا كانت المصلحه الفرديه أو القبليه هی هدف الاجتهاد فهذا غير جائز فی عرف الاسلام، و لا فی عرف المجتهدين من صحابه رسول الله صلی الله عليه و سلم. و لئن قال قائل كما اعتاد المحدثون أن يقولوا أحيانا: ان سياسه الامام علی رضی الله عنه لم تكن حكيمه لأنه أضاع الخلافه من يده، بينما استحكمت سياسه معاويه فبقيت الخلافه فی بيته قول مجاوز للصواب بعيد عن العمق و الشمول. فلئن ضاعت الخلافه من يت الامام علی بسبب بعض الاجراءات التی رفضها الامام فلم يكن ذلك عن جهل بآثارها، بل كان الامام عليما بما يعمل، خبيرا بنتائج ما آثار علی ما رفض من تسلط، و استبداد بالرأی، و رشوه للجيش، و التواء فی الحديث، و تضليل للرأی العام. و كانت المسأله عنده قضيه قوامها البناء و مقاومه عن الهدم، و خير للامام أن يخسر معركه الخلافه و الاسلام قائم، و قانونه لا يعتريه تحريف و لا تضليل، من أن يكسب معركه و يهدم أصلا من أصول سياسه الاسلام التی شرعت أصلا لغزو قلوب الملايين فی أرجاء العالم. و كيف يؤثر الامام ذاته علی الاسلام و دستوره، و هو ربيب النبی صلی الله عليه و سلم، و المتفرد بالعلم بين الصحابه، و مرجعهم الدستوری فی المعضلات؟ فخسران الامام لمعركه الخلافه احياء لمبدأ انكار الذات، و مبدأ انكار الذات، و الوضوح خير ألف مره عند الامام من كسب معركه سياسيه كان من الهين عليه كسبها، ولكن آثارها السيئه كانت من الخطوره بمكان. كان هناك اعتراف و تأكيد لحق الذات من جانب بنی أميه، و كان هناك استبداد

بالرأى، و كانت هناك رشوه للجيش و للشعب، و كان هناك تلويح بالشهوات لمن يريد، و تلك هى البلبله بعينها، فلو أن الامام هو الآخر وافق على تلك السياسه و نفذها لنجح [صفحه ۶۱] يقينا فى معركته، ولكن الدستور الاسلامى كان سيفتقد تلك المواد الرئيسيه و هى: الشورى و عدم الاستبداد، و القضاء على مبدأ الرشوه، و الوضوح و الحق. كما كان سيفتقد القدوه الحسنه المتبوعه فى سلوك الصحابه الذين أعلن النبى صلى الله عليه و سلم وجوب الاهتداء بهم فى ظلمات الفتن، و مهام المشكلات. و كان يمكن لأى انسان يأتى بعد الامام أن يلغى أى ماده من دستور الاسلام محتجا بفعل على رضى الله عنه باعتبار رأيه و رأى الصحابه أصلا من أصول الفقه الدستورى الاسلامى الحنيف. و تكون الفتنه العمياء التى يقول فيها كل دخيل برأيه الى أن يمحى جوهر الاسلام، و يصبح لونا من الفلسفه الفارغه لا جدوى منها. و كان الامام الحسين ثوره على اجتهاد الأمويين، و محاوله للعوده بالمسلمين الى الطراز الأول من سياسه الاسلام. و كانت حكمه بنى أميه فى السياسه - التى يزعمها كتاب العصر الحديث أحيانا - قد وصلت بالمسلمين التابعين لهم، و الملتقين حولهم الى ما تخوفه الامام على رضى الله عنه، و كانت لدى حماء السياسه كما يزعم بعض المحدثين أجهزه اعلام تنشر كل ما يخدم مصالحهم ولو كان باطلا يروى من حديث رسول الله و كذبا عليه، أو تفسيرا لآيه من القران تزعم أجهزه الاعلام تلك أنها رأى فلان ممن مات من الصحابه، و اضطربت أفكار المسلمين، و ازدوجت أفكارهم على النحو الذى عرضناه. و كان لابد من دم طاهر زكى شريف نبيل

يراق ظلما وعدوانا حتى يكون ذكرا دائما عبر العصور لقضيه السياسه الحقه للاسلام لا ينساه مسلم ما دام هناك ذكرى لقتل الحسين. و كان قتله و الظروف المحيطه به مثارا للفزع و الألم كما أراد الله ليبقى حزب المعارضه للباطل قويا بأنصاره أذكياء يتأثرون به، و يدركون أسراره مدى الأيام. ولو لم يقتل مولانا الحسين، ولو لم يستذل أبناؤه و أهل بيته على الصوره المرويه فى التاريخ لما بقى جوهر الاسلام الى الآن، ولعدت عليه يد التأويل، و مفتريات الروايات الكاذبه، و لذلك كان الامام على زين العابدين بن الحسين يقول دائما. : «ما يسرنى أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم». و ليس من المعقول مطلقا أن يرغب الامام السجاد فى الذل الا لله وحده، شأنه فى ذلك شأن أهل البيت، بل و شأن أقل العباد و الزهاد شأنا من غير آل البيت. ولكن الامام كما قلنا كان هادفا من كل كلمه و كل حركه و كل سكنه له فى حياته الى هدف سياسى قوامه الاسلام و الحق و العدل، و لم يكن مرتجلا فى أى سلوك سلكه [صفحه ۶۲] مدى حياته. ففى ذله المضروب عليه اثبات لشخصيه الاسلام، و ذكرى لمن كان له قلب من بعده يواصل بها تحقيق شخصيه الاسلام و يدفع الباطل، و ذل مع الحق و العدل و الاسلام هو ذل فى سبيل الله أولا أخيرا. و نعود فنقول: ان سياسه العلويين منذ الامام حتى زين العابدين هى تأسيس لحزب معارض للباطل ينمو و يتكاثر على الأيام، ولو أن الامام على أو الامام الحسين، أو الامام السجاد اصطنع و ما يشبه السياسه الحديثه فى عصرنا للوصول الى الحكم ولو بحجه أخذ الناس بالحق،

و النأی بهم عن الباطل، فان هذا العمل الخطیر لم یکن الا اتفاقا بین الأمویین و المعارضین للباطل من أهل البیت علی الباطل، أو بمعنی أوضح: لم یکن - ان حدث - الا اتفاقا علی الغاء مواد دستوریه هامه من أصول سیاسه الاسلام العلیا، و هو ما لم یکن الامام و لا أبناؤه یوافقون علیه، مهما رماهم المفکرون المسلمون فیما یعدهم من الزمان بقصر الباع فی میدان السیاسه. و أخیرا نقول: ان ما حافظ أئمه آل البیت علیه، و ما آثروا الذل علی التفریط فیه من أصول سیاسه الاسلام هو ما ینادی به کثیر من المخلصین الآن فی عصرنا الحاضر من اعاده النظر فی التاریخ، و العوده الی أصول الاسلام الأولی کوسیله للخلاص من الذل المضروب علی المسلمین من جراء القول بالرأی، و یأبی الله الا أن یتم نوره ولو کره المجرمون. [صفحه ۶۳]

مکانه الاجتماعی

لقد بحثنا فی الفصل السابق مکانه الامام السیاسیه منفصله عن مکانته الاجتماعیه التی أشرنا الیها اشاره عابره لنثبت أن جدارته فی المجال السیاسی کانت تعتمد علی ذکائه و وعیه الدینی الشامل، و شخصیته الفذه، فاذا ما أضفنا الی هذا مکانته الاجتماعیه فقد تم أمره، و استحکمت شخصیته غایه الاستحکام فی مجال الزعامه التی تستند الی الشخصیه أولا، ثم الی المکانه الاجتماعیه، لأن العکس ینزل بالزعامه من درجتها الأولی الی المرتبه الثانیه، لاعتمادها فی تلک الحاله علی عوامل خارجه عن شخصیه الانسان. هو فی نسبه کما قلنا یعتبر من جهه أدبیه أعرق أنساب الدنیا شرفا وجاها. و أما جده لأمه فهو «یزدجرد» أخر ملوک الفرس، و کان لیزدجرد ثلاث بنات سبین فی زمن عمر بن الخطاب، فکانت واحده منهن لعبدالله بن

عمر بن الخطاب، فولدت له «سالما»، و كانت الثانيه لمحمد بن أبى بكر الصديق، فولدت له «القاسم»، و كانت الثالثه للامام الحسين بن على، فولدت له «عليا زين العابدين السجاد». فسالم بن عبدالله بن عمر، و القاسم بن محمد بن أبى بكر، و الامام السجاد له أبناء خالات. و الثلاثه من أعيان الفقهاء العلماء فى الصدر الأول، فتضافر مجدهم فى العلم مع مجدهم جميعا فى الأصل العريق، ولكن زين العابدين قد تفوق عليهما فى النسب من جهه الأب، و بوصلته القريبه برسول الله صلى الله عليه و سلم، و بأصالته فى بنى هاشم. و كما كان عزيزا بأصوله كان عزيزا بين العرب بأولاده. و قد تزوج الامام السجاد أم عبدالله بنت عمه الحسن بن على بن أبى طالب، فولدت له: الحسن، و الحسين الأكبر، و أباجعفر الفقيه، و عبدالله. و يقول الأصمعى: ان مروان بن الحكم قال له: لو اتخذت السرارى يكثر أولادك؟ فقال: ليس لى ما أتسرى به، فأقرضه مائه ألف، فاشترى السرارى و كثر نسله، ثم لما مرض مروان أوصى ألا يؤخذ منه شى ء. و ولد له من احدى أمهات أولاده: زيد المقتول بالكوفه و امام الزيديه، و عمر، و على، و خديجه. [صفحه ۶۴] و من أخرى ولد له: حسين الأصغر، و أم على، و هى عليه. و من أخرى: كلثم، و سليمان - و لا عقب له، و مليكه. و من رابعه: القاسم، و أم حسن (و هى حسنه) و أم الحسين، و فاطمه. و كان رضى الله عنه مهيبا أبيا فى جمال و هيأه حسنه، و لباس فاخر، تتوجه السياده الموروثه، و البهاء النبوى الوقور. و يقول شريك بن أبى بكر: انه كان يصبغ بالسواد، أما موسى بن حبيب

الطائفی فیقول: انه کان یخضب بالحناء و الکتم و کلاهما وردت من السنه النبویه، اذ أوصی صلی الله علیه و سلم بالسواد، و قال: هو أحظی لکم عند نسائکم، و أهیب فی قلوب عدوکم. و قال عثمان بن حکیم: رأیت علی علی بن الحسین کساء خز وجبه خز. و قال ابنه أبوجعفر: کان لعلی بن الحسین سب سبنجونه من ثعالب، فکان یلبسها، فاذا أراد أن یصلی نزعها. و قال: أهدیت لعلی بن الحسین مستقه من العراق، فکان یلبسها، فاذا أراد أن یصلی نزعها. و قال نصر بن أوس الطائفی: دخلت علی علی بن الحسین و علیه سحق ملحفه حمراء، و له جمه الی المنکب مفروق. و یقول یزید بن حازم: رأیت علی علی بن الحسین طیلسانا کردیا غلیظا، و خفین یمانیین غلیظین. و یروی حسین بن زید بن علی عن عمه عمر بن علی أن علی بن الحسین کان یشتری کساء الخز بخمسین دینارا فیشتو فیه ثم یبیعه فیتصدق بثمنه، و یصیف فی ثوبین من ثیاب مصر أشمونیین بدینار، و یلبس ما بین ذا و ذا من اللبوس، و یقول: «من حرم زینه الله التی أخرج لعباده و الطیبات من الرزق». و یعتم، و ینبذ له فی السعن فی العیدین بغیر عسکر، و کان یدهن أو یتطیب بعد الغسل اذا أراد الاحرام. و قال سعید بن أبی هند: رأیت علی علی بن الحسین قلنسوه بیضاء لاطئه. و قال محمد بن هلال: کان علی بن الحسین یعتم و یرخی عمامته خلف ظهره شبرا أو فویقه. [صفحه ۶۵] و قال موسی بن أبی حبیب: رأیت نعل علی بن الحسین مدوره لیس لها لسان. کان مظهره علی هذا النحو

من الجمال و الفخامه و السياده الظاهره و الباطنه، و لم يكن هذا المظهر الجميل اغراقا منه فى الترف، و انما كان مما تستر فيه على مذهب أهل الملامه من نسبه الزهد و التواضع اليه، كما كان يتظاهر بالبخل و هو منه بعيد. و الدليل على أنه كان يتستر بهذا اللباس الفاخر أنه كان اذا جن الليل حمل على ظهره جر الطعام الى الأرامل و المساكين، و ليست تلك خلائق المفرقين فى الأبهه و العظمه بأى حال. و ما تستر به انما هو مباح خالص لا شبهه فيه و لا مظنه شبهه. على أن الامام بحكم رئاسته لأهل البيت النبوى فى عصره كان لابد أن يظهر بمظهر لائق ببيت النبوه فى عصر سادت فيه الأبهه قصور الخلفاء، فكان لابد من الفارق بين أبهه المستكبرين و أبهه المتواضعين من ال البيت. و كان الامام رضى الله عنه يربط صلاته الاجتماعيه بكل الطبقات المسلمه فى نطاق شريعه الاسلام و سنه النبى صلى الله عليه و سلم يرفع بسلوكه معنويات أهدرت فى عصره بعد أن أطلت الأرستقراطيه مره أخرى برأسها. و لقد زوج الامام ابنه له من مولاه، و أعتق جاريه و تزوجها، فكتب اليه عبدالملك بن مروان يعيره بذلك، فكتب اليه: لقد كان لكم فى رسول الله أسوه حسنه. فقد أعتق رسول الله صلى الله عليه و سلم صفيه و تزوجها، و أعتق زيد بن حارثه و زوجه ابنه عمته زينب بنت جحش. و كما كان حرصا على رفع معنويات المعتقين على هذه الصوره الكريمه كان حريصا على حفظ الصلات بين آل بيت النبى قويه سليمه من التقاطع و التدابر باعتباره الرجل المرموق فى البيت بعد أبيه و

عمه. حدثت بينه و بين الحسن بن الحسن ابن عمه خصومه، و كانت بينهما مناقشه، فنال منه حسن و هو ساكت فلما كان الليل ذهب الامام اليه و قال: يابن عم، ان كنت صادقا يغفر الله لى، و ان كنت كاذبا يغفر الله لك، و سلام عليك، ثم رجع. فحلقه حسن فصالحه. و كانت صلاته تمتد حتى تشمل الخليفه نفسه، و كان الخليفه يحترمه و يبجله و يستجيب له، و لم يوص بأحد خيرا يوم وقعه الحره الا- بعلى بن الحسين، و كان لشده حرصه على ترابط المجتمع، و الاحتفاظ بعلاقاته مع الجميع يصفح عن كل من أساء اليه، حتى روى ابن أبى الدنيا عن أبى حمزه الثمالى أنه كان اذا خرج قال: «اللهم انى [صفحه ۶۶] أتصدق اليوم - أو أهب عرضى اليوم - لمن استحله». و جماع مكانه الاجتماعى قول الجاحظ الذى ذكرناه آنفا: «لم أر الخارجى فيه الا كالشيعى، و لا الخاصى فيه الا كالعامى». أى انه كان محوا من الجميع بحيث لا يبطن انسان له عداوه، و مع ذلك فقد ان يسرع الى سل أحقاد المغرضين، و يحولهم الى أحبه بابتدائه لهم بالتحيه و العطاء و الاسترضاء. [صفحه ۶۷]

الكريم الزهد

أما أن يكون زين العابدين كريما فهذا أمر لا- غرابه فيه، فهو ابن الأ-كرمين كابرا عن كابر فى كرم آبائه أحد و أما أن يكون زاهدا فتلك سمه الكريم، اذ لا- يجتمع حرص و كرم فى قلب انسان. ولكن الذى نريد أن نحققه هنا هو التوفيق بين المظهر الجميل و اللباس الفاخر و بين خليقه الزهد. و تحقيق الزهد أنه: عدم الحرص، أو عدم انعقاد القلب على حب المال و وسائل الانتفاع الأخرى، دوام

الاستعداد لبذلها فی مواضعها المشروعه دون تردد. هذا هو الزهد فی حقیقه معناه، فکم من غنی اجتمع له المال و الجاه و هو زاهد، و کم من فقیر مملق و هو حریص شحیح غیر زاهد، هذا هو الأصل، ولکن تباین العصور و اختلاف الأحوال فیها فتح للأئمه من العلماء با الاجتهاد فی صوره الزهد لا فی أصله الذی أوضحناه. کان الزهد فی عصر النبی صلی الله علیه و سلم: بساطه فی الحیاه، و تقلل من وسائل الانتفاع، وعود الفائض علی المحتاجین من الفقراء و المساکین، و مع ذلک قد کان بین الصحابه الزاهدین من یلبسون اللباس الجمیل الفاخر و هم فی الحقیقه زهاد. و انسحب هذا المعنی علی عصر الامام زین العابدین، ولکن الناس بدأ و الشجون و یحرصون و یعقدون قلوبهم علی حب الدنیا، فاختار المعلمون أن یشمل الزهد ظاهر البدن فلا یکون علیه الا أدون اللباس کدلاله علی التحقق بمعنی الزهد الباطن فی القلب، و حفظا لآداب الاسلام من الادعاء الکاذب. و کانت عوده الانسان من مظاهر الأبهه و الفخامه الی لباس الصوف أو غیره من اللباس الرخیص دلیلا علی حقیقه ما فی القلب من تخل عن حب الدنیا اذا اقترن ذلک کله بالبذل و العطاء. و لما استبد بالناس الطمع فی الدنیا، و مضی علی ذلک زمن طویل، فسدت قلوبهم، و أصبح من العسیر علیها أن تستعذب آداب الاسلام الا بعد مجاهده عنیفه، ففضل المعلمون أن یبتکروا الطرق المختلفه للمجاهده کالجوع و الایثار، و العمل مع العامه فی الحرف و الصناعات، و الخروج عن الأملاک، و السهر، الی غیر ذلک من وسائل المجاهده [صفحه ۶۸] المشروعه. و حتی آل البیت أنفسهم کانوا

يجاهـدون أنفسـهم بين الحين و الحين فى مسأله المال للحفاظ على ملكه خلو القلب من حب الدنيا، فقد قاسم الامام الحسن ربه مـاله ثلاث مرات، و قاسم زين العابـدين ربه ماله مرتين و ما كان هـذا الا تـدريبا على تجربه النفس فى التخلى لئلا تأبى يوما من الأيام. و الزهـد يشـمل المال و الجاه و النفس، و لا يتحقق الا بهذه الأركان الثلاثه، فكم من زاهد فى المال غير زاهد فى الجاه و الرئاسه، و كم من زاهـد فى المال و الرئاسه غير زاهـد فى نفسه، بل يثور لها و يحمى أنفه ان نال منه أحـد. و لقد رأينا أن الامام زين العابـدين كـان زاهـدا فى الجـاه، و نـادى مرارا بـأن الشـيعه كـذبوا فيما ينسـبونه اليهم مما ليس فيهم، و قال مرارا: «نحن من صـالحى قومنا، و كفانا أننا من صالحى قومنا». و قال: «ما أرضـى أن يكون لى بنصـيبى من الـذل حمر النعم». و اعتـذر للصـغير و الكبير، و سـعى الى العامه يغدق عليهم جزاء لما نالوه به من السوء. و كدليل على زهده زخرت سيرته بوقائع الكرم التى لا تكون الا لزاهد قد تخلى عن حب الدنيا فلم يشـغله منها متاع، و لم يحرص منها على شـى ء. و كان عميق الفهم فقيه القلب فى كشـف الأـقنعه الـتى يتستر وراءهـا المحبون للـدنيا العاقـدون قلوبهم على حبهـا، فيقول: «انى لأسـتحى من الله عزوجـل أن أرى الأـخ من اخوانى فأسـأل الله له الجنه، و أبخـل عليه بالـدنيا، فاذا كان يوم القيامه قيل لى: فاذا كانت الجنه بيـدك كنت بها أبخل و أبخل و أبخل». و انما يعنى زين العابدين بهذا القول غيره ممن يبذلون الجنه لاخوانهم بالدعاء و الابتهال،

و يبخلون بما هو أدنى و أدنى من الجنه من حطام الدنيا، فهم كاذبون فى دعواهم رجاء الجنه لاخوانهم، و آيه كذبهم بخلهم بالدنيا. و من هذه النافذه التى فتحها الامام نستطيع أن نطل على دنيا الدعاوى الكاذبه فى العلاقات الاجتماعيه بأسرها. فبذل الدنيا آيه صدق النصح للمسلمين، و حب الخير لهم، و كراهه الشر أن يقع بهم، و من أجل الدلاله على ذلك كان زين العابدين يقدم دليل الحب بين يدى العطاء. فيروى أبونعيم: أنه كان اذا ناول الرجل الصدقه قبله ثم ناوله. فالقبله تعبير عن الحب المتبادل بين المؤمن و المؤمن، و العطاء دليل الحب الذى لا يكذب، أما الدعاء دون عطاء، و أما رجاء الخير مع الامساك و الشح فهو كذب و نفاق فى القلب لم نجد من فكر فى [صفحه ۶۹] كشفه بهذا الميزان الدقيق قبل الامام زين العابدين. كانت مقاييس الناس قد اضطربت فى عصره، و لا زالت مضطربه الى عصرنا الحاضر، اذ كان يقاس الناس بما يحرزون من الدنيا، و على مقدار ما يحرز الانسان منها تكون منزلته. و هذا خطأ يوقع فى كبريات المشاكل، و يهدم الكثير من القيم، و يظلل الكثير من الناس فى حياتهم و معاملاتهم. و قد وضع الامام ميزانا لأقدار الرجال حينما سئل: أى الناس أعظم خطرا؟ فقال: «من لم ير الدنيا لنفسه قدرا». فهو لا يعنى أن أعظم الناس خطرا هو المجرد من الدنيا، ولكن أعظمهم خطرا هو الذى لا يبنى قدره و منزلته على أساسها، و من ثم فهو الباذل لها، و المؤثر غيره بها، لأنه اذا لم يرها لنفسه قدرا جاء بها و انحلت قبضته عنها. و قد اعتبر الامام السخاء مقياسا

للسیاده فی الدنیا اذا اقترن بالتقوی، فالسخی الفاجر جبار فی الأرض یذل غیره بعطائه، و یستغل حرماته جزاء لنواله، أما السخی التقی فهو أشد حیاء فی حال الاعطاء من طالب النوال فی حال السؤال، و فی ذلک یقول الامام: «ساده الناس فی الدنیا الأسخیاء الأتقیاء، و فی الآخره أهل الدین و أهل الفضل و العلم الأتقیاء، لأن العلماء ورثه الأنبیاء». و مما لا یحتاج الی بیان أنه ما أراد بالعلماء الا العاملین بالعلم الذین خالطت الخشیه قلوبهم، و لم یرد بهم أولئک الجامعین للعلم الملمین بشوارده دون عمل، فالعالم التقی عامل، و لا سید فی الآخره غیره. و هو یعتبر البذل و العطاء عن کرم توبه من الذنب، وداعیا لغفرانه من الله تعالی، تصدیقا لقوله فی کتابه الکریم: «ان الحسنات یذهبن السیئات». و لذلک کان یقول حینما کان یقاسم الله تعالی ماله: «ان الله یحب المؤمن التواب». و لم یکن یحتاج الی وقت للتفکیر فیما یبذل أو فیما یکرم به اخوانه أو عبیده، بل کان سریع الاجابه و کأنه یلقی أذی ینفر منه و یزدریه. روی عبدالرزاق قال: سکبت جاریه لعلی بن حسین ماء لیتوضأ، فسقط الابریق من یدها علی وجهه فشجه، فقالت الجاریه: و الکاظمین الغیظ. قال: کظمت غیظی. قالت: و العافین عن الناس. قال: عفوت عنک. قالت: ان الله یحب المحسنین. قال: أنت [صفحه ۷۰] حره لوجه الله. و کان یشمل بعطائه أعیان العصر و أبناء الصحابه، و یتحمل عنهم دیونهم بالغه ما بلغت، فقد دخل علی محمد بن أسامه ابن زید فی مرضه، فجعل یبکی. فقال: ما شأنک؟ قال: علی دین. قال: ما هو؟ قال: خمسه عشر ألفا قال: فهو علی. و هذا

دليـل آخر على حرص الامام على مكان ابن أسامه بن زيـد من الجنه بحيث لا يعكره الـدين الـذى لا يكفر الا بالشـهاده، و دليل على دناءه شأن الدنيا عند الامام ببذله هذا القدر الهائل من المال عن أخيه المؤمن. و لم يكن يقبل أن يستغل منصبه فى المجتمع فى قبول عطايا الخليفه، فعطاؤه المقرر له بين أهل البيت وحده هو الذى كان يقبله دون من من الخلافه، فهو حق كسائر الحقوق، فاذا ما اقترض من الخليفه شيئا فانه كان يعده له ليرده مشكورا. قال عبدالله بن على بن الحسين: لما قتل الحسين قال مروان لأبى: ان أباك كان سألنى أربعه آلاف دينار فلم تكن حاضره عندى، و هى اليوم عندى مستيسره، فان أردت فخذها. فأخذها أبى، فلم يكلمه أحـد من بنى مروان فيهـا حتى قـام هشام فقال لأبى: ما فعل حقنا قبلكم؟ قال: موفر مشـكور. قال: فهو لك. و قمه جوده و سخائه صـنيعه الـذى كان يصـنع مع عامه الناس من أهل المـدينه. قال ابن اسـحاق: كان ناس بالمدينه يعيشون لا يدرون من أين يعيشون، و لاـ من يعطيهم، فلما مات زين العابـدين فقـدوا ذلك، فعرفوا أنه هو الـذى كان يأيتهم بالليل بما يأيتهم به. و لما مات وجدوا بظهره آثارا سوداء من أثر حمل جرب الطعام الى بيوت الأرامل و المساكين. و قالوا: انه كان يعول بهذه الطريقه مائه بيت فى المـدينه. و كان حريصا على اخفاء صـدقته على هذه الصوره فى جنح الظلام لهدف يراه و يؤمن به أوضـحه فى قوله: «صدقه الليـل (و فى روايه: السـر) تطفى ء غضب الرب، و تنـور القـبر، و تكشف عن العبـد ظلمه يوم القيـامه». و قـد تواترت الروايـات و تعددت وجوهها فى

صدقاته الليليه هذه. قال ابن عائشه: ما فقدت صدقه السر حتى مات على بن الحسين. [صفحه ۷۱] و روى الطبرانى عن عمر بن الحارث: لما مات على بن الحسين وجدوا بظهره آثارا سوداء، فقالوا: ما هذا؟ قالوا: كان يحمل جرب الدقيق بالليل يعطيها الفقراء. و لم يكن يخشى الفقر من كثره العطاء و البذل، و انما كان يخشى الفقر من فضل الله عليه و موالاته اياه، و كان من دعائه فى ذلك: «اللهم ارزقنى موالاه من كثرت عليه رزقك بما وسعت عليه من فضلك». و كان لا يرى أخذ الأجر على العلم، و يعتبره من أبواب حب الدنيا، فيقول: «من كتم علما أو أخذ عليه أجرا أو رفدا فلا ينفعه أبدا». هذا منهاج الامام فى مسأله المال و الجاه، بذل و زهد و براءه من الحب و الحرص، فما أثر هذا المنهاج فى بناء المجتمع فى عصره و بعد عصره؟ و ما الأخطار التى تتهدد المجتمع من جراء اهماله؟ و القضيه هى نفس القضيه الرئيسيه التى ثارت بين على رضى الله عنه و أهل بيته و بين بنى أميه، أى بين الامام على و معاويه بن أبى سفيان من حيث استعداد كل منهما لطبائع معينه تصلح فى أحدهما لزعامه دين، و تصلح فى الآخر لزعامه زمنيه. فالامام و نبوه منذ حداثتهم زهاد لا يعقدون قلوبهم على حب الدنيا، و الامام هو الذى امتدحه الله تعالى فى كتابه الكريم على خليقه البذل و الايثار فقال تعالى: (و يطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و أسيرا (۸) انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا (۹))[الانسان:۸، ۹]و على هذا ساربنوه من بعده، و بهذا أمر الاسلام،

فكانوا أحق الناس و أصلحهم لزعامه دين يسوس دوله. و معاويه مع كونه صحابيا كان يميل بطبعه الى الجاه و الملك و العظمه، و الظهور بمظاهر الملوك المجاورين لجزيره العرب، حتى لقد كان يحاول أن يستصدر من عمر بن الخطاب رضى الله عنه موافقه على الظهور بمظهر الأبهه فى مواجهه الروم، و كان يحتج لاقتراحه هذا بحجج حيرت الخليفه فقال له أخيرا: «لا أمرك و لا أنهاك». ورد الخليفه عمر رضى الله عنه على معاويه على هذه الصوره ليس جهلا من عمر بما يصلح لسياسه الدوله فى الاسلام، و هو امام أهل الاجتهاد المكلم، الذى وافق القرآن الكريم على رأيه. فهو لا ينهى معاويه عن مسلكه باعتباره مسلكا يمكن أن يرقى بدوله الاسلام ولكن [صفحه ٧٢] مع وال لا يهيم بالأبهه و العظمه و لا يتعشقهما، و لم يأمر معاويه بتنفيذ مقترحاته لأنه كبنى أميه كان هاويا للأبهه و العظمه و مظاهر الملك و السلطان. و عمر نفسه كان يرى العظمه و العزه فى الاسلام نفسه، و لذلك لما زار جبهه القتال و كان عليها أبوعبيده، شمر عمر عن ساقيه و خاض الماء الى القائد، و لما لفت القائده نظره الى أن العدو بازائه و لا يحسن أن يرى أمير دوله الاسلام يخوض الماء بقدميه قال له: «دعنا منك، نحن قوم قد أعزنا الاسلام». و على هذه السياسه مضى الامام على كرم الله وجهه، لا يرى عزا فى الاسلام، و لا جاها و لا سلطانا الا فى مخالفه ما كان عليه ملوك الأمم فى عصره، و اثيارا لتواضع و الزهد و البذل، على الكبرياء و جمع المال و الاستكثار منه. على أن الاسلام باعتباره

ختام الرسالات السماويه، يحمل فى ثنايا أصوله أمرا صريحا بمواصله القتال و الجهاد، و العمل على سيادته على العالم كله على مدى العصور و الأزمان. و هذه المهمه الشاقه العظمى لابد أن تقترن بالوسائل التى تجعلها أمرا ميسورا يتسارع الناس اليه، و لا يساقون اليه سوق على كره. و كانت تلك الوسائل المقرره شرعا هى: ١ - ضمان الكفايه من وسائل الانتفاع لجميع أبناء الأمه. ٢ - أن يكون هذا الضمان بطريقه تحفظ كرامه المسلم، و لا تذله، حتى تبقى حالته المعنويه على درجه من القوه و الكفايه للحرب. ٣ - توثيق روابط الحب بين أبناء الاسلام جميعا حتى يصيروا كالجسد الواحد. ۴ - العمل على قمع خلق التجبر الذى يقف حائلا دون اهداف ايجاد حالات من العداء الناشى ء من استغلال المتجبر للفقير أو لعرضه، أو تسخيره فى أعمال غير مشروعه للحصول على الكفايه من الرزق. ۵ - و أولا و أخيرا: وجوب الجهاد بالمال و النفس و الفكر و كل القوى البشريه فى سبيل الله. و لضمان نجاح هذه المهمه الساميه شرعت الزكاه حقا للفقير لا منا و أذى من دافعها، و شرعت الصدقات الحره بآدابها التى تحفظ كرامه المسلم، و شرع الزهد فى الدنيا و ايثار الآخره عليها، و المساواه بين الجميع فى الحقوق مع الاحتفاظ بمقادير المواهب المتفوقه [صفحه ٧٣] للأعمال القياديه العامه. و كان الزهد و التقلل من وسائل الانتفاع وسيله لتحقيق الجهاد فى سبيل الله لنشر الاسلام فى أى زمان مستقبل قد يحتاج المسلمون فيه الى جهود ماليه ضخمه كما هو الحال فى عصرنا الحاضر ولكن بكل أسف نحتاج اليه لصد طامع مغير أو محتل لأرض المسلمين بالفعل لا

لنشر الاسلام فی ربوع أخری کما أمرالله، و ما کان الأصل الذی ترجع الیه أسباب الأنتکاس الا الحرص علی المال و حبسه عن وجوهه المشروعه، و استبداد النفس بالمسلم لانفاقه فی وجهه غیر مشروعه من الشهوات و الملذات. و لقد بدأ انتکاس المسلمین عن طریقهم منذ عهد بنی أمیه. و یکفینا فی هذا الصدد أن نورد خبراء جاء فی «أسد الغابه». و غیره من المراجع یقول: ان قاتل الامام الحسین جاء الی فسطاط أمیر الجیش و هو عمر بن سعد بن أبی وقاص، فوقف علیه و أنشد: أو قر رکابی فضه و ذهبا فقد قتلت السید المحجبا قتلت خیر الناس أما و أبا و خیرهم اذ ینسبون نسبا فقال له عمر بن سعد: ویحک، تقول هذا الکلام؟ لو سمعک زیاد لقتلک. أشهد أنک مجنون، و حذفه بقضیب کأن معه. و عمر بن سعد هذا الذی استعظم مقاله سفان بن أنس الذی اشترک فی قتل الحسین حینما سمع منه هذا الشعر، هو نفسه الذی أمر نفرا فرکبوا خیولهم و أوطأوها الحسین الشهید. و ثار زید بن أرقم حینما رآی ابن زیاد ینکت بین شفتی الحین بقضیب فی یده و خرج یقول: أنتم یا معشر العرب العبید بعد الیوم قتلتم ابن فاطمه، و أمرتم ابن مرجانه، فهو یقتل خیارکم و یستعبد شرارکم. علی هذه الصوره من الاضطراب و اختلال القیم بدأ الناس طریقهم فی عصر بنی أمیه، و غنی عن البیان أن التیار قد اجترف أبناء کبار الصحابه من أمثال عمر بن سعد بن أبی وقاص الذی ازدوج تفکیره هو الآخر علی الصوره التی نراها فی القصه السابقه. أصبح المال مطلوبا بحیث یذبح فی سبیله الساده خیر الناس أما و أبا بعد أن کان

مطلوبا لاستخدامه فی ذبح أهل الکفر أو المتطاولین علی خیر الناس أما و أبا. و لابد أن یتبع هذا الجشع الی المال شح به، و حبس له عن مصارفه المشروعه، و توجیهه الی مصارف [صفحه ۷۴] غیر مشروعه، و من هنا بدأ تهدید أصل من أصول الاسلام هو: الجهاد بالمال فی سبیل الله، و اذا انعقد القلب علی حب المال فان الجهاد بالنفس فی سبیل الله أصبح هو الآخر هدفا للتهدید بالانهیار. و اذا شحت النفوس بالمال دب الحقد فی القلوب، و تعددت الوسائل المحرمه للوصول الیه، و أثری البعض ثراء فاحشا، و من علی الفقیر بما یعطیه من سقط المتاع، و انحلت وحده الأمه، و فقدت فاعلیتها فی میدان الجهاد المفروض. من أجل ذلک کان لابد من منهج معارض، و أن تکون المعارضه بناءه تتبنی أصل الاسلام و لا تحید عنه الی الباطل السائد، و کان زعماء المعارضه دائما هم آل البیت النبوی و من سار علی نهجهم مدی الأیام. أما أن المعارضه لم تستطع فی ذلک العصر کبح النفوس الحافحه وردها الی الصواب بحیث یعود الاسلام و دوله الاسلام ألی الأصل الذی کانت علیه فی الصدر الأول، فما ذلک الا لأن من المعلوم للجمیع أن الفساد أسرع و أشد سیطره علی النفوس من الخیر، و أن العوده بالنفوس الی أصلها یحتاج الی وقت طویل، و قرون عدیده حتی یمکن أن یقتنع العالم الاسلامی بصوره جماعیه بفساد المنهاج الذی کان علیه، و بضروره العوده الی الأصل، و التخلی عن هوی النفس السائد. فمن غیر المعقول أن یتم اقناع المجتمع کله فی تلک الفتنه العمیاء، ولکن الذی نجح فیه الامام و من سار علی

نهجه هو تكوين مدرسه واعيه لمنهج المعارضه عميقه الفقه لأصول الاسلام و أهدافه المحليه و العالميه، تنقل ذلك المنهج الى الطلاب على مدى الزمن، حتى لا يكون عصر من العصور عاطلا من المعارضه البناءه، و هو ما حدث بالفعل. لقد تناقل العلماء و المعلمون مبادى ء المعارضه حتى وصلنا الاسلام سليما من كل زيغ، واضح الأهداف، و انكمشت على مدى هذا الزمان الطويل بفضل تلك المعارضه كل المذاهب الدخيله التى كانت تعمل جاهده فى القضاء على العقيده ذاتها، و لم يبق منها الآن غير أو شاب تتضاء بمرور الزمن ليحل محلها دين الله القيم. فما من بلد من بلاد الاسلام الآن الا وصوت المعارضه يرتفع بين أبنائه مهيبا بالمسلمين أن يعودوا الى أهل سلوكهم الذى قامت عليه حضارتهم. و قد جمعت المعارضه أصل السنه و الفقهاء السنيين، و معتدلى الصوفيه فى اطار واحد من الدعوه الجاده للعوده الى السلوك الأول للمسلمين. [صفحه ۷۵] و لئن كان الصوفيه باعتبارهم أول من حمل رساله الزهد و توجيه المال الى وجوهه المشروعه، و كبح جماح النفوس قد شملهم التطرف بعض الزمن، و اتجهوا الى التصوف النظرى، و أيدعوا الحديث عن المقامات و الدرجات فى الوقت الذى أهملوها سلوكا، و خلطوا المقامات بالخرافات أحيانا، و حاول منحرفوهم الحجر على العقول لئلا تعترض سلوكا فاسدا، لئن كان ذلك كذلك فان دعوه جاده تأخذ مكانها الآن الى تجريد التصوف من تلك الشوائب، و عرضه نقيا واضحا سليما على النحو الذى نقله آل البيت عن آبائهم عن جدهم صلى الله عليه و سلم. هذا هو فضل الامام السجاد، و فضل أبنائه، و فضل أبناء عمه الامام الحسن، و فضل العقلاء من طلابهم

و مريـديهم لا يرتاب فيه اثنان. ولو أنهم انـدمجوا فيما ساد فى عصـرهم من أهواء لما كانت بلاد الاسـلام على الوضع الـذى نراه الآـن. ان وضع أمم الاسـلام لاـ يرضـى المؤمن الحق، ولكن هـذا التـدهور مـا كان الا بفعل الاغراء بالـدنيا، و انعقاد القلوب على حبها، ذلك السـلوك الـذى أسـسه بنوأميه عن قصـد أو عن غير قصد، فالله أعلم، ولو تكن تعاليم الاسـلام الحق قد وصـلتنا على أيدى أهل البيت و بقيه الصـحابه كان الحال أسوأ و أسوأ، و لكانت سائر بلاد الاسـلام قد لقيت مصير أسبانيا الأمويه الأساس، و التى انـدثر فيهـا الاسـلام تمامـا. نعم، اننـا لم نصـل الآـن الى درجه السـلوك العملى للمسـلمين الأوائل، ولكننا وصـلنا الى ظهور أصوات كثيره تدعو اليه، و تؤكد جدواه فى ميدان السـياسه الاسلاميه العالميه المفروضه على المسلمين. و لازلنا نجد فى القلوب غضاضه من قبول مبدأ البساطه فى الحياه الى أقصـى حد ممكن، بحيث يكون المؤمن نظيفا فى هيأته و مسكنه و مأكله بأبسط ما يمكن من التكاليف، لا سـيما و أن انحلال الأمم الأوروبيه يغزونا بمختلف البـدع التى تثقل الكواهل، و تسـتنزف الأموال فى غير وجوهها. و مع ذلك فان الدعوات المعارضه تشـتد و تتآزر مع النكبات التى يضـرب الله تعالى بها أمم الاسـلام، و سـيكون لنا ان شاء الله من ذلك كله درسا قاسيا يصلنا بأصول الاسلام الناجمه فى بناء الحضاره. و لا يجوز أن يحتج راغب فى الترف بأن الامام زين العابـدين و الكثير من آل البيت كـانوا يلبسون فـاخر الثياب، فهـذا احتجاج باطل. [صـفحه ۷۶] فقـد كان زين العابدين كما رأينا يبيع تلك الثياب الفاخره بعد الشتاء، و يتصدق بثمنها على الفقراء. فهل هو ترف

آخر أن يبيع الثياب ليشترى بدلا منها فى عامه القابل؟ أم ان هناك سرا فى هذا السلوك يخدم الهدف الذى تبناه و خطط له تخطيطا دقيقا؟ الحق أن السجاد و آل البيت كان لهم محبون قد شغفوا بهم و هاموا حتى دفعهم الحب الى اخراجهم عن نطاق البشر، و كان جل هؤلاء الغلاه من غير العرب، و كانوا على جانب من الثراء، فلا شك فى أن ثوب الامام السجاد الذى اشتراه بخمسين دينارا كان يباع بأضعاف هذا الثمن التماسا لبركته، و نحن لا نزال نرى فى عصرنا كيف أن آثار العظماء، و أسماء أهل الفن تبلغ أسعارا خياليه فى الأسواق، و الانسان هو الانسان، و لا زالت شعرات قالوا: انها من شعر رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الهند هددت بحرب دمويه حين سرقها بعض الناس. اذن هى محاوله لاخراج المال من الخزائن للعوده بها على مستحقيها ولكن بوسيله أخرى اذ لم تجد وسيله الأمر و النهى المقرره فى الاسلام. لم يكن الامام مترفا و لا شحيحا، بل كان المثل الأعلى للزهد فى الدنيا، كما كان المثل الأعلى للجود بها على كل طالب محتاج، و كان اذا رآى السائل قام اليه فأعطاه و قال: «ان الصدقه تقع فى يد الله قبل أن يد السائل» ثم يومى بكفيه. و فى مجال الكرم كان يسوى بين الصغير و الكبير فيه، و روى نصر بن أوس فى ذلك: أنه كان يدخل يده فى التمر فيعطى الكبير و المولود سواء. [صفحه ٧٧]

السجاد

لابد أن يكتمل منهج الامام زين العابدين الذى هدف منه الى البقاء على الاسلام النبوى، و الى الرغبه فى وصوله كما هو الى الأجيال

القابله من المسلمين. و الاسلام ليس عمرانا فی مجال الماده التی تخدم شریعه الجهاد حسب، بل هو عمران روحی یدوم المسلم به علی صلته بربه اتصالا روحیا، بحیث یتخلی بعض الوقت عن کل شی ء فی الوجود الا عن مناجاته لربه و الانخلاع من أوضار الفکر المادی حتی ولو کان هادفا الی خدمه الاسلام. و الجانب الروحی فی الاسلام یعتبر بمثابه تجدید للوعی الدینی الأصیل خشیه أن تعدو علیه شئون الحیاه فتحوله الی نظریات یجید المسلم الکلام عنها، و لا یجید تطبیقها. و هذا التحدید الدائم للوعی الدینی فی الواقع هو الحافز العمیق فی الانسان، الذی یدفع به الی تتبع آداب الاسلام الأخری، و تطبیق دستوره المادی فی عزم و اخلاص بدافع الحال الذی یحسه المؤمن بعد کل تجربه روحیه عبادیه. و هذا الحال عباره عن: تذوق خاص لأعمال العباده، و احساس بما یفیض من الغیب علی العابد من فیض لا یخضع فی التعبیر عنه لقیود اللغه، لاختلاف ألوانه باختلاف العبادات. ولکنه علی أی موجات من الرضی أو الحبور، أو الشهود القلبی تدفع الانسان الی الاستزاده من العمل، و محاوله تخلیصه من کل آفه حتی یصل العابد الی الحال مصفی من کل کدر، و یصبح «مقاما» و ملکه من ملکات المؤمن ینعکس نورا فی قلبه، و ذکاء فی عقله، و علما یفیض علی القلب بلا أستاذ، وفقها عمیقا فی الآفاق و الأنفس تقصر دونه العبارات، و أخیرا قوه عارمه فی الباطن و الظاهر لا تدانیها قوه. قوه فی ذات الانسان، و قوه فی تسدید الدعاء و الوصول به الی الله تعالی خالصا لا تعوقه عن الاجابه آفه عائقه. و لذلک کله اختار الامام زین العابدین نقش خاتمه

«القوه لله جميعا». و فی هذا الاختیار براءه من الحول و القوه، و توجه کلی الی الله فی کل الأمور یتأکد معها اجابه الدعاء الخالص الذی تزول به حینئذ الجبال کما جاء فی السنه، و الذی تسری برکاته الی کل من دعابه، لأنه کان من قلب فیاض یحمل الکلمات من روحه ما یؤثر به [صفحه ۷۸] فی قلوب الآخرین دون شک. و سنشیر الی نموذج من ذلک أثناء هذا الفصل ان شاء الله. أطلقو علی الامام علی بن الحسین ألقابا کلها تشیر الی أنه کان قمه فی الوعی الدینی الأصیل کما کان قمه فی منهاجه الذی تبناه فی الاصلاح المادی. سموه «زین العابدین»، و سموه «السجاد». و ما ذاک الا لأنه اختار الصلاه و السجود یفرق روحه فیها، و یغترف من معین فیضها ما شاء الله حتی صار بحق زین العابدین علی الاطلاق. لم یؤثر عنه کثره الصیام، و لا تشجیع علی القتال، ولکنه اختار الصلاه لأنها جماع العبادات کلها، لا توجد عباده الا و فی الصلاه منها شی ء. فیها من الصوم حقیقته ببطلانها مع الطعام، و معناه ینقصانها مع التفکیر فی غیرها و غیر ما فیها من مناجاه و أذکار، و فیها من الحج التوجه الی البیت، و وحده القصد، و فیها من الجهاد جهاد النفس و العقل و القلب علی التخلی عن کل شی ء فی الوجود، و فیها من العلم أنه لیس لک منها الا ما عقلت و فقهت من معانی أذکارها و حرکاتها، و فیها من الزکاه حرمان البدن من النوم و الراحه فی سبیل الله. و الصلاه أعظم العبادات قدرا علی الاطلاق، فما من عباده الا و یجوز أداؤها مع الحرکه و

الكلام و التحرر الجسدى الا هى فلا يجوز فيها كلام و لا حركه و لا مزاوله أى شأن من شئون الحياه. و لذلك اختارها الامام زين العابدين مجالا حيا تحلق فيه روحه ما شاء الله لها من التحليق، و تغترف منها ما شاءت من معين الحب الذى لا ينضب. و تجمع الروايات على أنه كان يصلى فى اليوم و الليله ألف ركعه. و نرى أن العدد المروى ما قصد به الا أنه كان يكثر من نافعه الصلاه بما لا يعهد فى غيره من العباد و أهل الفضل، لأن هذا العدد من الركعات يمكن أداؤه فى أربع و عشرين ساعه بواقع دقيقه و نصف دقيقه تقريبا للركعه الواحده. و قد كان الامام يجلس للناس، و يشتغل بالعلم، و يرى أهل بيته و أبناء عمه، و ينام، و يطعم، كما أنه ليس من دأبه الاسراع فى الصلاه، بل كانت له سجدات طوال يفرق روحه فيها بالمناجاه و الدعاء. فعلى أى حال لقد كان الامام متفوقا على غيره فى نوافل الصلاه و قيام الليل، معينا بالصلاه عنايه خاصه، حتى لقد كان يتتبع الصغار من آل البيت و يحثهم على الصلاه اذا بلغوا السابعه من العمر. قال ابنه الحسين بن على: دخل علينا على بن الحسين و أنا و جعفر (حفيده) نلعب [صفحه ٧٩] فى حائط (بستان) فقال أبى لمحمد بن على: كم مر على جعفر؟ (يعنى من العمر) قال: سبع سنين. قال: فمروه بالصلاه. هو يريد أن ينشأ أهل البيت على الصلاه منذ الصغر ليدركوا ما فيها من صقال للنفس، و ابراز لجوهر الروح، و وعى كامل للاسلام لا سيما اذا كانت من صلاه الليل التى أمر النى صلى الله عليه

و سلم بها الليل كله الا قليلا، بحيث لا يقل وقت صلاه الليل عن نصف الليل الا قليلا، و يزاد على ذلك حسب الاستطاعه، قال تعالى: (قم الليل الا قليلا (۲) نصفه أو انقص منه قليلا (۳) أو زد عليه و رتل القرآن ترتيلا (۴))[المزمل:۲، ۳، ۴] و لأمر ما كانت صلاه الليل أكثر الصلاه بركه، و أصغاها مناجاه، و أجملها عائده على العقل و الروح، بل و على الشكل العام للانسان، حتى لقد أفردها عباد السلف بالعنايه، و تسابقوا اليها، و استكثروا منها، و قالوا فى تعليل الجمال الفائض على القلب منها الكثير، و جاء فى السنه قدر كبير من الأحاديث التى تحث عليها، و تصور ثوابها و فوائدها بما يدفع الانسان اليها بقلبه و روحه و كل أحاسيسه. و لشغف الامام زين العابدين بالصلاه شغف كذلك بالمناجاه لله تعالى فى المواطن المباركه كالكعبه، و عند السجود، و له فى تلك المناجاه أساليب تنم عن روح صوفيه رفيعه و ذوق فياض جميل و اخلاص لا نجد له نظيرا الا بين أفراد قلائل من عباد المسلمين. و لشده اخلاصه فى مناجاته تلك كانت بركاتها تسرى كما قلنا الى كل من قلدها، و ناجى ربه بها محاولا أن يصل الى أقصى ما يمكن الوصول اليه من الاخلاص فيها. قال طاووس بن كيسان: سمعته و هو ساجد عند الحجر يقول: «عبيدك بفنائك، سائلك، فقيرك بفنائك». قال طاووس: فوالله ما دعوت الله بها فى كرب قط الا كشفت عنى». و لقيه الحسن البصرى فى الكعبه، و كان زين العابدين ملثما يبكى و يتضرع و ينشد: ألا أيها المأمول فى كل حاجه شكوت اليك الضر فارحم شكايتى ألا يا رجائى أنت

كاشف كربتى فهب لى ذنوبى كلها واقصد حاجتى فان اليك القصد فى كل حاجه و أنت غياث الطالبين و غياتى قال الحسن: فقلت: يا سلاله النبوه، ما هذه المناجاه و البكاء و أنت فى أهل البيت؟ [صفحه ۸۰] و قال الله عزوجل: «ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا». قال: «دع يا بن أبى الحسن. خلقت الجنه لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا، و خلقت النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا، و قال صلى الله عليه و سلم: ايتونى بأعمالكم لا بأنسابكم». و قال محمد بن كعب القرظى: كنت فى مسجد الكوفه بعض الليالى. فأتى على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنه فى نصف الليل حتى بلغ باب المسجد و هو يقول فى بعض مناجاته: «يا حبيبى و قره عينى، غلقت الملوك أبوابها، و طافت عليها حراسها، و بابك مفتوح». ثم دخل المسجد و صلى. و لا شك أن هذا اللقاء بين محمد بن كعب و الامام قد كان فى غير الكوفه، لأنه لم يذهب الى الكوفه فيما نعرف، و لا سبيل الى انكار الواقعه لهذا الخطأ، فالأسلوب أسلوب الامام الرقيق الذى تميز به فى مناجاته. و من مناجاته أيضا: «يا موضع كل شكوى، و سامع كل نجوى، يا شافى كل بلوى، يا عالم كل خفيه، و يا كاشف ما تشاء من كل بليه، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، و ضعفت قوته، و قلت حيلته، دعاء الغريب الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو الا أنت يا أرحم الراحمين، لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين». و كان يقول فى سجوده: «اللهم ان كنت عصيتك فانى قد أطعتك فى أحب الأشياء اليك و

هو الايمان بك منا منك، لا منا عليك». و نحن نلاحظ فى دعاء الامام كما ترى مسحه عن الاعتراف بالذنب، و مسحه من الحاجه الملحه الى الله تعالى فى صوره لا تقنع الا به، و هذه المسحه هى التى سماها الصوفيه فيما بعد بالفقر، و أفردوا لها البحوث، و شققوا فيها الكلام. و لقد ورد الفقر فى القرآن الكريم فى مواضع عده أهما هنا قوله تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله و الله هو الغنى الحميد (١٥))[فاطر: ١٥] و الفقر فى الآيه يشمل الفقر المادى، و الفقر المعنوى على السواء: و الامام يلجأ الى الله لجوء من اشتدت فاقته، و أحاط به الكرب فليس له الا هو سبحانه: و انما يعنى بذلك الفقر المعنوى الذى تحدث عنه الصوفيه. و هذا النوع من الفقر أثر من آثار اقامه الصلاه على وجهها الصحيح، و التسامى بالروح [صفحه ٨١] من خلالها الى الأفق الأعلى الذى يرتد الانسان بعد التحليق فى أجوائه حسير اكسيرا عارفا بقدره كانسان عاجز بسيط محتاج مهما أوتى من المال و الجاه و القوه على مقارعه المشكلات. فالفقر الذى كان يشعر به الامام هو: الاحساس بالحاجه الى الله عن يقين و صدق فى كل الحركات و السكنات، بحيث يبطل حول الانسان وقوته، و تعدد الأعمال الانسانيه كلها بما فيها من جهد و صبر الى الله، فهو سبحانه الذى وفق للعمل، و هو الذى أخذ بالناصيه ركوعا و سجودا و قياما، و هو الفعال فى كل شى ء بجهد عبده الذى منحه اياه. فاذا استقر هذا الشعور - و هو من ثمرات الصلاه ظاهرا و باطنا - آمن الانسان بأنه عاجز لولا قوه الله

تؤازره، و بأنه مذنب لو لا غفران الله يظله، و بأنه مقصر لولا رحمه الله تتغمده، و هذا هو الفقر الحقيقى السائد فى مناجاه الامام، و منه كان الشعور بالذنب الذى يدمن زين العابدين الابتهال الى الله فى غفرانه. ليس ذنبا ناشئا عن ارتكاب كبيره، أو مقارفه مكروه، ولكنه شعور الفقير الحق الى الله بأنه لم يفعل شيئا يؤدى به حق الله، و لا حق الشكر على ما وفق من عمل. و هو مع كل ذلك الخوف و الاشفاق من شبهه الاستقلال بالعمل، أو استعذاب الحال الفائض أثناءه أو بعده، أو عدم مطابقه الظاهر للباطن فى أداء الأعمال، و هو ما أشفق منه الامام السجاد حين كان يقول: «اللهم انى أعوذ بك أن تحسن فى لوائح العيون غلانيتى، و أن تقبح فى خفيات العيون سريرتى». و لقد عبر الامام عن شعوره بالذنب الخفى الذى هو من ثمار مقام الفقر حين قال للرجل الذى وقع فيه و أساء اليه: «يا أخى، ما ستر الله عنك من عيوبنا أكثر». و لم يكن للامام عيوب مما يسميها الناس عيوبا قد سترها عن الناس الا تلك المشاعر الساميه التى تدخل فى باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين». و لعل شعوره بالذنب كان كما قلنا قبلا لأنه لا يستطيع القيام بحق الجهاد و النصره للاسلام الى فى ذلك النطاق الذى غير حياته كلها يعمل فيه. على أن المشاعر التى كانت سائده فى عصره كانت تثق فى المال و الجاه ما لا تثق فيما عندالله من عون أو ثواب. و حتى الخلفاء أنفسهم قد اتسمت جميع أعمالهم بالماديه [صفحه ۸۲] يقيسون الأمور بها، و يعتبرونها مقياسا للعظمه فى دوله الاسلام. كان المجتمع

على الصوره التى أفصح عنها الحارث بن أسد المحاسبى بعد عصر الامام حين قال: «لو قيل لأحدهم: هل لكم فى الدنيا حراما، و تحاسبون عليها فى الآخره لرضوا». كانوا يحبون العاجله و يذرون الآخره، فأكثر الامام من المناجاه، و اتسمت مناجاته دائما باعلان الفقر الى الله، و بالاعتراف: بالذنب، و بأنه لا غنى الا باذنه، و كان ذلك فى مواجهه ما زاع فى عصره من قيم تخالف روح الاسلام و جوهره. [صفحه ۸۳]

آداب سلوكيه

ناس لا يصلحون للصداقه

كان الامام رضى الله عنه خبيرا بأخلاق الناس خبره عميقه، عارفا بمن يصلحون للصداقه و من لا يصلحون. و لم يدع الى مقاطعه الناس و الهرب منهم كما دعا من بعده من الزهاد و العباد المصلحين، لأن الانسان لم يمكن بعد قد بلغ درجه من الشراسه فى الفساد ينبغى معها الحذر من الجميع كالحذر من السبع الضارى كما يقول ابراهيم بن أدهم. و قد اكتفى الامام زين العابدين بالتحذير من أنواع معينه من الناس: و أول الأنواع التى حذر من صحبتهم: الفاسق، و الفاسق هو الخارج عن دين الله، المجاهر بالعصيان، المستعذب له، و قد علل خطورته بأنه «يبيعك بأكله و أقل منها، يطمع فيها ثم لا يجدها». فالفاسق يتفق فى الأخلاق و الطبائع مع «المدمنين» و المتاجرين بالأعراض فى عصرنا الحاضر، و هذه الفئات كلها تصل الى حال من الانحلال الخلقى تفقد معه الشعور بحقوق الروابط العائليه و الاجتماعيه بل و الأبويه كذلك، لا يفكرون الا فى الشهوات المتسلطه، و الادمان الملح. و الفسوق بأنواعه الأخرى يتفق مع تلك الأنواع فى موت الضمير، و عدم الشعور بالمسئوليه و لا بالتزام، و لذلك كثيرا ما تطالعنا الصحف بالمعتدين على آبائهم أو

أمهاتهم أو اخواتهم فی سبیل امرأه، أو فی سبیل الحاح الادمان علی مخدر، أو رغبه فی السلب و النهب. تلک خلائق الفاسقین دائما فی کل عصر تترکز فی سیاده مذهب المنفعه الشخصیه و استباحه الوسائل الیها، ثم الغباء فی تقدیر الظروف، حتی لیضحی الفاسق أولا بالروابط المقدسه طمعا فی سراب ثم لا یجده شیئا بعد ذلک. و ثانی الأنواع التی حذر زین العابدین من صحبتهم: الکاذب، و قد علل رداءه هذا النوع من الناس بأنه «کالسراب یقرب منک البعید، و یباعد منک القریب». و الذین جربوا معاشره الکذابین یدرکون مدی الاثاره التی تحدثها کذباتهم حینما [صفحه ۸۴] یقطعون شوطا کبیرا وراء السراب الذی یتراءی لهم منهم ثم لا یجدونه شیئا. کما أن تقریب البعید و مباعده القریب فیها مضیعه للوقت فیما لا یجدی شیئا، لا فی الدنیا و لا فی الآخره. و ثالث الأنواع التی حذر منها هم: أهل الحمق، فقد قال لابنه: «و لا تصحب الأحمق، فانه یرید أن ینفعک فیضرک». و الأحمق هو: السخیف العقل الغبی، السی ء فی تصرفاته، و الضرر الذی یصیب صاحبه منه عن غیر قصد معروف مشهور فی العلاقات الاجتماعیه للجمیع. ولکن الجدید هنا: أنه لا یدرک هذه الأضرار الا ذکی ألمعی یفرق بین الأحمق و غیر الأحمق، و أما مجتمع الحمقی فلا یکاد یبین بینهم حمق من ذکاء. و رابع الأنواع: قاطع الرحم، و یقول لابنه عنه: (فهل عسیتم ان تولیتم أن تفسدوا فی الأرض و تقطعوا أرحامکم (۲۲) أولئک الذین لعنهم الله فأصمهم و أعمی أبصارهم (۲۳))[محمد۲۲، ۲۳] فصحبه الملعون من الله حب لما کره الله، و مجلبه للعنه بهذا المخالفه الواضحه لمحاب الله، علی أن قاطع الرحم

مع ذلک أسرع الی مقاطعه غیر ذوی الرحم، و أقرب الی التقلب و أبعد عن مبدأ النصح المقرر فی الاسلام کدلیل علی صدق الایمان.

لا تبالغ فی المدح

المدح فی ذاته أمر مکروه فی الاسلام الا ان کان صادقا، و کان الممدوح ممن قویت قلوبهم فلم یغرهم الثناء، و لم یخرجوا به عن دائره الاستقامه الی دائره العجب و الخیلاء. و هذا النوع القوی قلیل بین أهل الفضل، و لذلک کان واجبا أن تسد الذرائع فلا یلجأ الانسان الی مدح غیره حتی لا یفتح له بابا من الشر کان فی غنی عنه. و لقد أفاض الحارث بن أسد المحاسبی فی الحدیث عن أخطار المدح فی کتاب «الوصایا» و انتهی الی أنه قل من ینجو من عطب المدح، و قرر أنه لو استوی المادح و الذام فی نفس انسان فانه قد لا یسلم من شهوه خفیه تدفعه الی السرور بمجالسه المادح، و النفور من الذام رغم التسویه بینهما فی المعامله فی ظاهر الحال. و لقد أشار الرسول صلی الله علیه و سلم الی خطوره المدح علی قلوب السالکین الی الله فقال للمادح أخاه بظهر الغیب «قطعت ظهر أخیک». و قال فی مناسبه أخری: «لو سمعها ما أفلح». [صفحه ۸۵] و قال محذرا من المداحین: «احثوا فی وجوه المداحین التراب». فالمادح شیطان یبعث الغرور فی نفس الانسان، و الغرور باب من أبواب الفشل فی السلوک کما قال رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم. و زین العابدین رضی الله عنه قد لجأ الی وسیله بسیطه للتنفیر من المادح غیره بما لا یعلم من الخیر، المبالغ فی اضفاء خلال الصلاح علی صاحبه و قوام هذه الوسیله هو ما یلحق

الممدوح على هذه الصفه من ذم مقابل للمدح بما لا يعلم فى الممدوح من خلال الشر. قال الامام: «لا يقول رجل فى رجل من الخير ما لا يعلم، الا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم».

لا تصحب غيرک الا على طاعه الله

الحب فى الله و الصحبه فيه، و البغض لله و الفرقه من أجله هو السلوک الاسلامى الصحيح، العائد بالخير على الانسان، و المباعد له من الانحراف أو مظنه الانحراف. فالصحبه لمآرب النفس، و لمصالح الدنيا أمر ممقوت فى الدين و العرف على السواء، فهذا النوع هو الوصولى الانتهازى الذى تنفر منه المجتمعات و تزدريه العيون و القلوب. و الصحبه على المعصيه أشد مقتا عندالله، و لا حجه لمن يقول: أصحب العصاه لآمرهم و أنهاهم، فالأمر و النهى قد يكونان على غير صحبه و صداقه، و النفس سريعه القبول للعدوى، و المجاملات المألوفه بين العصاه عامل من عوامل لين القلوب بعضها الى بعض، و من ثم يندمج الجميع فى المعصيه على وجه من الوجوه، اما بمقارنتها بالفعل، و اما بالسكوت عن النهى، و اما باستلذاذها فى القلب، و كل ذلک تحول بالقلب عن وجهته التى شرعها له الله تعالى، اذ شرع الله تعالى للقلب أن يكون محلا لذكره، أو محلا للفكره الداعيه الى ساعه، أو المنفره من معصيه، أو الكاشفه عن عظمه الله فيزداد بها الايمان، أو الرافعه للحجب حتى يعاين الانسان مواعيد الله من الثواب أو العقاب على وجه اليقين فيرجو أو يخاف. و تحذير من صحبه العاصين لأى سبب من أسباب الصحبه يقول الامام زين العابدين: «ما أصحاب اثنان على معصيه الا أو شک أن يفترق على غير طاعه».

من أدب العلماء

العلماء موازين الحق الموضوعه فى الأرض يهتدى الناس بهديهم فى ظلمات الفتن، [صفحه ۸۶] و يتلمسون أعلام الطريق اذا حاول طمسها فرد أو جماعه ممن لهم مأرب فى التضليل عن طريق الله. و صلاح الأمه مرتبط أشد الارتباط بصلاح العلماء، و فسادها مرهون بفسادهم،

و قد قال السلف فی ذلک الکثیر، و شبهوا العلماء بالرأس، و الرعیه بالجسد، فاذا فسد الرأس فسد الجسد، و شبهوهم أحیانا أخری بالطبیب یعالج المرضی فاذا مرض الطبیب فمن یداویه؟ و من یداوی أولئک المرضی؟ و لقد رکز الامام زین العابدین آفه العلم فی: الاغراق فی الضحک، و فی کتمه عن الناس، و فی أخذ الأجر علیه أو استخدامه لنیل الوفد و العطاء. فقال: «من کتم علما، أو أخذ علیه أجرا، أو رفدا، فلا ینفعه أبدا». و قال: «من ضحک ضحکه مج من العلم مجه». فکتم العلم صد عن سبیل الله بالامتناع عن ارشاد الناس الی الطریق، و رضی بالباطل یسود فلا یسارع العلماء الی دفعه و العمل علی سیاده الحق علیه، و حجر علی الناس أن یسارعوا الی عمل الخیر بعدم بیانه لهم، و دعوتهم الیه، و محاوله خفیه لابتزاز الدنیا من الناس ببذل العلم حینما یکتمه العلماء، و یحتاج الناس الیه. و قد جرت سیره العلماء الفضلاء من السلف علی اعتبار العلم و بذله و تعلیمه للناس عملا واجبا من صمیم النصح لله و لرسوله و لعامه المسلمین و خاصتهم بحجزهم عن الشر، و هدایتهم الی الخیر، و اعتبروا معاشهم أمرا منفصلا عن العلم، یسعون الیه بوسائلهم الخاصه، و لا یتخذون من العلم وسیله لقضاء مصالح العلماء الدنیویه، و دفع الناس الی ارفاقهم بالعطاء. و قد کان الثوری یعمل تاجرا لکسب عیشه، و کان ابراهیم بن أدهم یعمل فی حصاد القمح و حراسه البساتین لنفس الهدف، و لا زالت أسماء عزیزه تطالعنا من التاریخ تکشف عن الحرف التی کان یزاولها العلماء لکسب عیشهم منفصله عن العلم، کأبی علی الدقاق، و القواریری، و القفال.

و كان الامام الأعظم أبوحنيفه تاجرا، و كذلك كان الشافعى شطرا من حياته، و كان ابن حنبل يعيش من غله عقار بسيط و على هذا ما فضلاء السلف جميعا بلا استثناء. ثم حدثت بدعه أخذ الأجره على تعليم العلم بعد زين العابدين واضحه، مما يدل على وجودها خفيه فى عصره، أو انها كانت مجرد رغبات تساور نفوس العلماء فى عصر كانت الماده تلعب دورا هاما فى افساد ضمائر الناس، و كان خلفاء بنى أميه فى حاجه الى [صفحه ۸۷] المال، و كان حياتهم يتعللون بهم فى جمع المال من غير وجوهه، و كان للعلماء نصيب لقاء فتاواهم التى تبيح هذا العمل الآثم. على أن أخذ الأجر على العلم الصحيح يزود العلماء بوسيله الفساد التى تدفهم فيما بعد الى أخذ المال لاصدار فتاوى فاسده تخدم بعض الأغراض التى يريدها أولو الأمر أو المحبون للمال. و هكذا لاينتفع العالم الكاتم لعلمه و الآخذ عليه أجرا بعلمه، و من ثم لا ينفع به غيره، فقد أصبح علمه مدخولا، كما أصبح معبرا للفاسد يعبر على فتاواه المفسدون فى الأرض الى أهدافهم. و من هذا القول الذى أثر عن الامام زين العابدين يمكن أن نشك فى نسبه أبيات نسبت اليه تقول: انى لأكتم من علمى جواهره كيلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا و قد تقدم فى هذا أبوحسن الى الحسين و وصى قبله الحسنا يا رب جوهر علم لو أبرح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا و لا ستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يزتونه حسنا فهو رجل صاحب رساله بسيطه الرغبه فى اعاده المسلمين الى سلوكهم الأول الذى كان عليه النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته، و ليس

من هـذا المنهاج الاشاره الى غرائب العلم و جواهره التى تـدفع الى البلبه، و تغرى الناس باصـطناع السـريه التى عاش الامام حياته حربا عليها، فلم تكن من صنيعه يوما من الأيام. و هو لا يخشى ظهور الحق، و لا يخشى الفتنه من الحق، بل كان حياته كلها داعيا الى الحق، يبصـر به الجاهـل و العـالم، و انمـا ظهرت فكره الخوين على الجهـال من الفتنه بـالحق فى عصـر متأخر عن عصـر زين العابـدين، حينما تعمق الصوفيه فى نظرياتهم، و أغربوا فى الفتنه عليه فى عقيدته، و لم يكن ذلك من عناصـر فكر الامام السـجاد بحال. و هذه السـريه التى يخشاها قائل هذه الأبيات على العامه قد أشار اليها الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى - و من العجيب أنه لم يشك فى نسـبتها الى السجاد - حيث قال فى الفتوحات المكيه (١ / ٢۶٠) و نبه بقوله: يعبد الوثنا، على مقصوده من تأويل قـول النـبى صـلى الله عليه و سـلم: ان الله خلـق آدم على صـورته، باعـاده الضـمير على الله تعـالى، و هـو من [صـفحه ٨٨] بعض محتملاـته. و لقـد بنى الصوفيه على هـذه الأبيـات و على غيرهـا من الأـقوال المنسوبه الى أبى هريره و الامام على غالب نظريات التصوف، و سـنعرض لـذلك بالتفصـيل فى فصـل مسـتقل ان شـاء الله. و يرى الامـام زين العابـدين أن الضـحك للعلماء يـذهب بعلمهـم، و يجردهم منه رويـدا رويـدا مـا دام هنـاك اصـرار عليه فيقـول: «من ضـحك ضـحكه مـج من العلم مجه». و هـو يريد بالضحك القهقهه و الاغراق، و لا يريد به الابتسام الدال على الاعجاب، أو على شعور بالسرور، فقد كان الابتسام من صنيع النبى صلى الله عليه و سلم دون القهقهه

التی تکشف عن خفه فی الطبیعه، و طیش فی الشعور، و لیس ذلک من سمات العلماء و لا الأنبیاء. و انما کان ادمان الضحک وسیله لاستنزاف العلم لأن دواعیه غالبا ما تکون من خلائق أهل البطاله و السخریه، کما أن الاغراق لا یکون الا عن تفاعل عمیق مع هذا الباطل، و التفاعل العمیق مع الباطل الساخر یحد من الرغبه فی الفقه العمیق فی مسائل العلم التی لا تنمو الا فی جو فی الصمت و الفکر، و مجانبه البطاله، و القرب من درجه التبتل فی محراب العلم و المعرفه. فکل دفعه من الضحک تدفع معها قدرا من ملکه البحث العلمی الی خارج القلب، لتحل مکانها نظره عمیقه تهدف الی استکشاف ما فی حدیث أهل البطاله من الاضحاک. و اذا کانت دعوه زین العابدین للعلماء الی الجدیه فی الفکره، و الی هجران البطاله لم تکن قد اتخذت مکانها الحق فی عصره، فان هناک من استجاب لها من کل قلبه، و اندفع فی البکاء و التفکر فی الموت و فیما بعده کوسیله لاستبقاء هذا الشعر الجاد بمسئولیه العالم نحو علمه، و نحو صیانته من کل شبهه تخرجه عن قداسته، و عن رسالته فی هدایه الآخرین. و کان من مشاهیر البکائین فی عصر زین العابدین: الحسن البصری، و من بعده مالک ابن دینار، ثم سفیان الثوری و سائر زهاد الکوفه من بعد، مما أبقی علی جوهر السمت العلمی المراد من علماء الاسلام.

الفکر، و الاعتبار بالموت

کان علی بن الحسین اذا رآی الجنازه تمثل بالبیتین الآتیین: [صفحه ۸۹] نراع اذا الجنائز قابلتنا و نلهو حین تمضی ذاهبات کروعه ثله لمفار سبع فلما غاب عادت راتعات و هو یهدف من تمثله هذا الی نقد الوعی

الـدینی فی قلوب المسـلمین، اذ تخلو عن ادمـان الفکره فی الموت و ما بعـده، فلم یعـد الموت یسـیطر علی تفکیرهم الا لحظات عابره تکون عند لقاء الجنازه، ثم لا یلبثون أن تجترفهم الحیاه بزحامها و دواعیها فینسون ما کان یجب أن یذکر. و التذکر العمیق للموت و ما بعـده فرع من أصل «الفکر» الـذی دعا الیه الاسـلام کأدب سـلوکی له أثره البالغ فی تکوین شخصـیه رجل الحضاره الاسـلامیه و أخلاقه التی لا تتم صلاحیته لرسالته الا بها. لقد حث القرآن الکریم علی الفکره فی آیات کثیره فقال تعالی: (ان فی ذلک لآیات لقوم یتفکرون). و قال: (و یتفکرون فی خلق السـموات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانک فقنا عذاب النار (۱۹۱)[آل عمران:۱۹۱]. و کـان النبی صـلی الله علیه و سـلم و صـحابته أهل فکره یخلون الیها، و یتعمقون فیها، و یعتبرونها ذکرا خفیـا هو أجـدی بکثیر من الـذکر العلنی، لأنها من أعمال القلب التی لا یطلع علیها الملائکه الکابتون، کما أنها من الأعمال التی یتولی الله تعـالی مکافأه العابـد علیها عطاء جزلا من معین الکرم الالهی الـذی لا ینضب له معین. و علی الفکره درج آل البیت، و تبعهم جمع کبیر تبنوهـا سـلوکا، و دعوا النـاس الیهـا، و أفردها المؤلفون القـدامی بأبواب مسـتقله فی کتبهم، کالحارث بن أسـد المحـاسبی فی «أعمـال القلوب و الجوارح»، و أبی طـالب المکی فی «قوت القلوب»، ثم الغزالی فی «الاحیـاء». و ممن عنی بهـا و بغیرهـا مـن عناصـر وعی الروح و دسـائس النفس فیـه: أبوالسـعود بن أبی العشـائر، و له أقـوال تسـتحق البحث فی کتب الـتراجم المختلفه. و قد حدد زین العابدین أثر الفکره فی بناء شخصیه المسلم فقال: «الفکره مرآه

المؤمن، يرى فيها سيئاته و حسناته». أى انها الميزان الصادق الذى يزن به المؤمن نفسه نفسه، و يلمس مواطن الضعف فى أعماقه، و يحاول على أثر ذلك أن يعود الى حال من التوازن النفسى فلا يجمح به غرور، [صفحه ۹۰] و لا يقنطه خطأ. تلك كانت حاجه العصر فى زمن الامام، فقد جمح الغرور بالكثيرين من ذوى الخطر، فلم يروا لهم سيئه، و استفطموا مالهم من حسنات، و اختلط الأمر على البعض فأصبح بعد الخطأ صوابا، و لا أدل على ذلك كله من اعتقاد أولى الأمر سلامه مسلكهم فى سب الامام على و ذريته على المنابر. كما كانوا لا يريدون أن يقتربوا بأفكارهم من الموت و ما بعده الا لفترات قصيره عند شهود جنازه. و لم نعثر للامام السجاد على منهاج للفكره فى أقواله يحدد معالم الطريق التى يسلكها العابد سوى: الفكره فى تدبر السيئات و الحسنات، و فى الموت. و هذا المنهاج شامل لكل ما استقصاه العلماء بعد السجاد من عناصر الفكره و فروعها، فكلها عائده الى هذين الأصلين اللذين حددهما زين العابدين فى تركيز ينم عن عقليه واعيه مركزه و قلب ذكى يتقن تحذير الأصول، و يكتفى بها عن التوسع فى الشرح و التفصيل. و لقد حدد الحارث المحاسبى عناصر الفكره فى «أعمال القلوب و الجوارح» فحصرها فى: «فكره فى عظمه الله تدعو الى التوحيد، و فكره فيما يقرب الى الله من أعمال، و فكره تكشف نفاق النفس أو اعتدالها على الطريق، و فكره فى الموت و ما بعده». و تلك كلها كما ترى عائده الى الأصلين اللذين حددهما الامام لا يشذ عنهما لون من ألوان الفكره. هى المحاسبه للنفس أولا، و ذكر

الموت و تمثله ثانيا، و قد يكون ذكر الموت مقدما على محاسبه النفس اذا اجحمت النفس عن مواجهه خطاياها ففرفت بصاحبها عن المحاسبه، فما من فكره تجدد ملكه المحاسبه فى النفس الا ذكر الموت الذى يعيدها ما بعده من هول و مواجهه اليهه، و محاكمه عادله الى المحاسبه التى تقوم بدورها الهام فى تعديل سلوك الانسان. و مما هو جدير بالذكر أن ابراهيم بن أدهم قد حمل لواء الدعوه الى الفكره من بعد الامام زين العابدين حتى جعلها رأس عبادته، أثيره لديه على طول القيام بالليل، و دعا اليها أصحابه و مريديه، و نزع بها الى وعى صوفى جديد عبر عنه حينما سئل و هو خارج من الجيل: من أين أقبلت؟ فقال: «من الأنس بالله». [صفحه ۹۱]

مكانته فى التصوف

تبدأ أهميه الامام على بن الحسين فى التصوف من نقطه البدايه البارزه فى سلوكه و سمته حين اقامه الصلاه، و من تلك الرعده التى كانت تلم به بين وضوئه و صلاته، ثم من بكائه و زهده القلبى الذى لا يتجه نحو الظاهر، و غير ذلك من المسالك التى عرضنا لها اثناء هذا البحث و التى انتهجها الصوفيه فى صوره زهد بسيط يتسلح بتلك لمواجيد، ثم تبناها الصوفيه من بعد، و تعهدوها بالرعايه و النماء، و رسموا لها طريقا يتعهد غراسها فى الأجيال المستقبله على مدى الأيام. و قد ظهرت أهميه الامام السجاد بعد تنظيم التصوف فى طرائق و طقوس معينه: فقد دخل الى سند الخرقه حيث لبسها من أبيه الحسين، عن الامام على عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ألبسها هو لابنه محمد الباقر، و لبسها منه جعفر الصادق، و لبسها منه موسى بن

جعفر الكاظم، و لبسها منه على بن موسى الرضا، و ألبسها الرضا لمعروف الكرخى، و منه الى سرى السقطى، و منه الى الجنيد البغدادى الذى تنتهى الى طرائق التصوف و اسانيد الخرقه جميعا. و لذكر المراجع الشيعيه النزعه كما جاء فى طرائق الحقائق: أن الطريقه الحقه جرت بواسطه اربعه أولياء من المختصين بآل البيت، ثم انتشرت بين العباد و البلاء، و تذكر من لينها: السلسله الأدهميه، بواسطه سيد الساجدين على بن الحسين، و منه الى السطان ابراهيم بن أدهم. و اذا كان زين العابدين لم يترك لنا الا قليلا من الأقوال التى تمت الى السلوك الصوفى متأخر بالقربى فانما كان ذلك لعنايته البالغه بالسلوك العملى، و تصحيح القلب من مراضه العائقه عن قبول العمل و الاستفاده منه، و مع ذلك فقد تلقف الصوفيه كلماته من بعده، و تحدثوا بها على صوره أخرى لا تخرج عن معناها، و من أمثله ذلك قول الامام: «ان الجسد اذا لم يمرض أشر، و لا خير فى جسد يأشر». فقد اقتبسها و قال: «ان القلب اذا لم يحزن خرب». ولكن اهتمام الصوفيه بالنسبه للامام السجاد قد اتجه اتجاها عمليا كان و قوامه مواجيده العميقه التى كان يتلبس بها بين وضوءه و صلاته، و أدعيته و مناجاته المأثوره [صفحه ۹۲] عنه، و بكاؤه، و قوام ذلك كله أنه بقيه آل البيت النبوى الذى نجا من سيف الأمويين، و منه كانت سلاله النبى الطاهره و من أبناء عمه الحسن بن على رضى الله عنهم جميعا. كانت هناك حيره كما قلنا تساور المؤمنين وسط تلك العواصف التى أثارها بنوأميه باستثناء عمر بن عبدالعزيز، واتجه الكثير من الناس اتجاها ماديا، و أوشكت روحانيات الاسلام

أن تجنو جذوتها لولا أن تبناها الامام السجاد، فانتقلت منه الى أعيان العصر كالحسن البصرى و غيره ممن نقلوها بدورهم الى تلاميذهم حتى تبلورت فى سلوك مدروس منظم على أيدى الصوفيه. و كانت السمات التى دعا اليها زين العابدين تتلخص فى: ١ - تجريد الباطن من حب الدنيا، و صرفها الى مستحقيها و الاكتفاء منها بالقليل. ٢ - اخفاء الأعمال، و الحرص على اخفاء الوجدان الدينى تفاديا للنفاق و الرياء. ٣ - الدعوه الى السلوك الدينى الأصيل فى مواجهه أى انحراف يطرأ على الناس فى أى عصر من العصور. و قد أحسن أخلاف الامام من طلابه و مريديه القيام عل مبادئه هذه، و كان هناك من اختاروا لأنفسهم من بمادئه الثلاثه هذه مبدأ الخفاء و مبدأ رعايه الوجدان، و أهملوا الدعوه فلجأوا الى الخلوات فى بطون الجبال و أعماق الصحارى فرارا بدينهم و بأنفسهم من زحمه الحياه و سحرها. ولكن ثلاثه ممن اتصلت حياتهم بعصر الامام كانوا أعلام هدايه على طريقه الذى رسمه قبل وفاته واضحا لاعوج فيه، و هم: ابراهيم بن أدهم، و سفيان الثورى، و مالك بن دينار. أما ابراهيم بن أدهم فقد ضرب المثل الأعلى فى التخلى عن الدنيا حين نزل عن الاماره و عن ثرائه العريض، و عاش حصار بسيطا، أو حارسا للبساتين، و يعيش من عمل يده و يتحاشى أن تكون عليه مؤنه لأحد بالغه ما بلغت، ثم أضاف الى منهج الامام تجريد ظاهره هو الآخر من كل ما يمت الى حب الدنيا، و كان ذلك حتما حين اختلط أهل التجريد الباطن بالمدعين للصلاح، المتخذين من دعوى تجريد الباطن وسيله للغش و الخداع، لا سيما و أن فاخر اللباس كان قد

اشتهر و أصبح مظهرا لعامه الناس من التجار و طلاب المال. و طور ابن أدهم كذلك مبدأ الايثار و الصدقات الخفيه، فجعلها ايثارا بالجهد [صفحه ۹۳] الشخصى اذا كان يطحن بيده للأرامل و العجزه و يعين الضعفاء على العمل و يدع لهم أجورهم. وجهر بمعارضته للسلوك المفرق فى حب الدنيا، و وجه معارضته للحكام و الأغنياء فى أسلوب مقنع، فسمى الحكام «الملوك» و سمى الأغنياء «المساكين». و كان فى كل ذلك من كبار أهل الوجدان الذين اختاروا الفكره أساسا و منبعا له لا يفيض على قلوبهم الا منها. و أما سفيان الثورى الذى كان معاصر الابن أدهم و صديقا له فقد أعلن ثورته على أجهزه الحكم، و لقى من ثورته هذه المتاعب القاسيه، اذ أصبح مطلوبا لشرطه الخليفه لا يستقر فى مكان حتى يرحل عنه فرارا بدعوته، حتى كان موته فى البصره مختفيا فى دار أبى منصور السليمى. ولكنه لم ينزع نحو مسلك ابن أدهم فى الجوع الشديد، و تدريب الطلاب على الحرب، بل كان الى جانب تجريد الظاهر من اللباس الفاخر، و الاكتفاء بالقليل الرخيص منه لا يحث على الحرمان من طيبات الحياه، بل يحث على التقلل من هذه الطيبات، و كان هو الآخر بكاء متفكرا يؤرقه الفكر فيما بعد الموت فيفزع فى جنح الظلام باكيا فزعا من هول ما عاين و أيقن. أما مالك بن دينار فقد كان واعظا خرج بالزهد من عزلته الى عالم الظهور، فوق أنه تبنى دعوه سياسيه صريحه قوامها ترهيب الطغاه من الحكام، و تذكيرهم بما ينتظرهم من عسير الحساب. و هكذا كانت سيره زين العابدين جزءا هاما من مكونات الشخصيه لهؤلاء الأبطال الثلاثه، و كانوا خير خلف لخير سلف، أخلصوا دينهم

لله، و دعوا الى وجهيه المادى و الروحى، و لم يخلطوا أفكار الاسلام الأصليه بالفكر الدخيل الذى كان له أسوأ الأثر فيما بعد على الفكر الصوفى الذى كانت مهمته الرئيسيه هى: نقل الاسلام صريحا واضحا خاليا من كل زيع، و الأخذ بأيدى الملايين الى الله فى تضامن و تآزر يؤكد روح الحضاره الاسلاميه، و يسعى لاسترداد مكانتها فى قمه التاريخ. ولكن التوازن قد اختل فيما بعد بين مواهب الروح و مواهب العقل، فتطور السلوك الصوفى الى نظريات كان لها فعل السحر بين العامه و الخاصه، فشدت انتباه الجميع على وجه التقريب، حتى أصبح التصوف نظريا أكثر منه سلوكيا، و خمدت جذوه الدعوه الى الاصلاح الاجتماعى، و علل هؤلاء النظريون أنفسهم بالمهدى المنتظر، و بالحكومات الباطنيه التى تقوم بدلا منهم بالعزل و التوليه حسبما تقتضيه ظروف دوله الاسلام. [صفحه ۹۴] كان شأن السلوك شأن كل مظهر من مظاهر دوله الاسلام يسير فى طريق من طريقين: اما طريق التطرف و الغلو، و اما طريق التفريط و الاهمال. و كان خط السلوك من هذين الطريقين هو التفريط فى العمل، و التطرف فى النظريات. و قد حاول بعض المتأخرين من الصوفيه أن يصرف أنظار الباحثين عن استناد طريق التصوف فى زين العابدين بواسطه ابراهيم بن أدهم فجعلوها تستند الى جعفر الصادق، أو الى على بن موسى الرضا، و من العجيب أن تكون سلسله الطريق من أبى يزيد البسطامى عن جعفر الصادق فى بعض الأسانيد، مع استحاله لقائهما، اذ توفى الصادق عام۱۴۸ و توفى أبويزيد البسطامى عام. ۲۶۱ و أحيانا جعلوا السند عن معروف الكرخى عن على بن موسى بن جعفر الصادق. و هو كما ترى محاوله لصرف الأنظار عن سند ابراهيم

بن أدهم عن زين العابدين، لأن هذا السند الأخير لا يدع فرصه للتطرف و لا للتخاذل فى أى شأن من شئون السلوك و الوجدان، كما أنه محاوله للجنوح الى أسانيد أفرط رجالها فى الكلام عن المواجيد و كانوا صادقين فى حديثهم، ولكنهم استندوا اليهم كوسيله لايجاد مبرر للكلام فى المقامات و الأحوال، لا يجدونه لا عند ابن أدهم، و لا عند زين العابدين. لقد كان زين العابدين هو المرجع الأول للصوفيه المتأخرين، و كان هو الرأس العلوى الزهد الاسلامى الأصيل، و للوجدان الاسلامى العميق، الذى لم يفتح بابا للكلام، من حيث فتح الأبواب كلها للعمل. و لئن كان من أحفاده من أثر عنه حديث متطرف فى علوم الحرف، و علوم الباطن فان المرجع و المقياس هو زين العابدين وحده، و ما كان هذا التطرف فى أسرار الحروف الا لخدمه أهداف شيعيه رآى الصوفيه أن يأخذوا بها فى سلوكهم و نظرياتهم، و يسيرون فى نفس الطريق الى آخره. و لنأخذ لذلك مثلا- مسأله الصحبه. فالصحبه مبدأ اسلامى أصيل يقضى بوجوب التجمع بين الفئات الصالحه لله و فى الله، كما يقضى تبعا لذلك بهجران الفئات الفاسده، و قد رأينا زين العابدين يرسم الخطوط العريضه لمبدأ الصحبه، و يحذر من بعض الناس، و يحدد الصلات الواجبه بين المؤمن و أخيه و بينه و بين مجتمعه كله. فالصحبه فى الله هى الشعيره الاسلاميه الأصيله، و قوامها الأصيل الذى حدده الاسلام هو: التعاون على مرضاه الله، و على البعد عن مكارهه، أى هى: الأمر و النهى و النصح. [صفحه ۹۵] و تلك هى صحبه الأكفاء المتناظرين فى المنزله و المكانه، ولكن هناك صحبه اسلاميه أصليه أخرى هى: صحبه الانسان لمن فوقه علما و عملا، و

تقتضى هذه الصحبه من المتبوع: الشفقه و الرحمه و لنصح، و من التابع الوفاق و حفظ الحرمه و حسن الاستماع و الطاعه فيما لا معصيه فيه. و كان الشيوخ بعد زين العابدين من أمثال الثورى و ابن أدهم و داود الطائى و غيرهم يؤكدون مبدأ النصح و الشفقه على الاتباع، و لا يتخذون لأنفسهم مقاما فوق مقاماتهم، و لا يحيطون أنفسهم بالأسرار و الأحاجى، و كان الوضوح هو البدء و النهايه فى السلوك و الارشاد، و كان التواضع من الشيوخ، و الحب من الطلاب، و التقليد للشيوخ فى كل ميادين العمل سمه لازمه للجميع لم يشذ عنها شيخ الا ما كان من داود الطائى الذى كان مضربا عن الاجتماع بالناس، فكانوا ينتظرونه أياما حتى يتمكنوا من لقائه، و كان هذا الاعتزال من داود ناشئا من اغراقه فى الاستجماع الفردى، و خوفه على نفس من انتفاعل مع الناس، و لم يكن ناشئا عن اصطناع أسرار، أو دعوى مقام معين من مقامات السلوك التى نشأت من بعد ذلك. و من عجيب أمر الناس فى نهايه القرن الأول الهجرى: أنهم كانوا أشد استماعا لكل ما هو سرى أسطورى من المعارف و العلوم منهم الى الاستماع للأوامر الصريحه الصادره فى الكتاب و السنه للجميع بالعلم و العمل، و عدم الاندفاع وراء الأسرار، و التشدق و التفيهق، فقد أكد القرآن الكريم أنه (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقه أو معروف أو اصلاح بين الناس (١١٤))[النساء:١١٤]. ولكن العجب ينقضى أو يكاد ينقضى اذا تلمسنا الأسباب الكامنه وراء هذا الفتور من جهه، و وراء الاندفاع وراء الأسرار، و المضى فى تيارها المتطرف، فوجدنا أن الشعب الاسلامى كان قد أصيب فى

ذلک القرن بثلاثه من المشاعر أملتها ظروف سياسيه هی: ۱- الندم علی التفریط فی نصره الامام علی و آل بیته. ۲- و الحب الکامن لله و رسول و آل بیته. ۳- و الشعور بالاضطهاد و الذل عقب اعلان زید بن أسلم بعد قتل الامام الحسین رأیه الصادق حین قال: «قتلتم ابن بنت رسول الله صلی الله علیه و سلم، و أمرتم ابن مرجانه، أنتم والله العبید بعد الیوم». و أعلن ما سیقاسیه المؤمنون من اضطهاد حین قرر أن بنی أمیه سیقتلون خیار الناس، و یستذلون شرارهم. و لیس بعد ذلک ذل لاحق بأمه کان قوام [صفحه ۹۶] دستورها الأمر و النهی، و بهما استحقت أن تکون خیر أمه أخرجت للناس. کان الندم عاملا من عوامل العزله و الأنفرادیه الوجوم و الهم اللاحق، کما کان الشعور بالاضطهاد عاملا من عوامل الاحجام عن مواجهه الحقیقه، و باعثا من بواعث اهمال الأمر و النهی، و ترک العامه فوضی لا سراه لهم، و لا مر شد یحجبهم عن الخرافه، و التعلق بالخیال و الأوهام کبدیل عن الحریه التی افتقدوها، و عن غره الاسلام الممنوحه للعاملین. و کان الحب الی ذلک کله یذکی جذوه التطلع الی تعبیر عنه، لم یکن التعبیر عنه کامنا فی تقلید المحبوب و السیر بقدر ما کان اغراقا فی اضفاء الأسرار علیه، و التطرف فی هذا الاغراق. کان هناک حب دون شک، و کان هناک تطلع دون شک، و لم تکن هناک عزیمه تعین علی العمل دون شک، و لم یجد العامه متنفسا الا فی فکره تجدیه الاسلام التی نادی بها أبوهاشم عبدالله بن محمد بن الحنفیه (ت۹۷) المعاصر لعمه زین العابدین، و الذی شرد عن تعالیم أبیه و

أعلن رأيا كانت له خطورته فى مجال التصوف. خرج أبوهاشم هذا و هو علوى غير فاطمى - على المسلمين بنظريه رواها ابن سعد فى طبقاته، و ابن خلدون فى العبر، و روتها كتب النحل الاسلاميه قال فيها موجها كلامه الى محمد بن على بن عبدالله بن عباس: «لم يمض مائه سنه من نبوه قط الا انتهت أمورها، لقوله عزوجل: (أو كالذى مر على قريه و هى خاويه على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائه عام ثم بعثه)[البقره:۲۵۹]فاذا دخلت سنه مائه فابعث رسلك و دعاتك، فان الله متمم أمرك». و قد تلقف الصوفيه هذه النظريه فأسبغوا على شيوخهم صفه تجديد الدين، و لقب الكثير منهم بمجدد الدين، أو مجدد المائه، و لم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه الصوفيه الى اقتباس أفكار أبى هاشم هذا التى تدعى أن لكل ظاهر باطنا، و لكل شخص روحا، و لكل تنزيل، تأويلا، و لكل مثال فى العالم حقيقه،و المنتشر فى الآفاق من الحكم و الأسرار مجتمع فى الشخص الانسانى، و هو العلم الذى استأثر به على عليه السلام، ثم ابنه محمد بن الحنفيه، ثم أفضى بذلك السر الى ابنه أبى هاشم، و كل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقا، و على ضوء هذه النظريه أسبغ الصوفيه على الشيوخ صفه الاستئثار بالعلم اللدنى، و علم الأسرار الالهى، حتى عد الشعرانى منها ما ينوف من [صفحه ۹۷] عشره آلاف علم. و مضى أبوهاشم فى خروجه عن نطاق المنهاج الذى رسمه آل البيت النبوى فأشار على محمد بن على بن عبدالله بن عباس الذى يتفق معه فى مقاومه الأمويين: أن يختار دعاته فليكونوا اثنى عشر نقيبا، فان الله لم

يصلح بنى اسرائيل الا بهم، و سبعين نفرا يتلونهم، فان النبى انما اتخذ اثنى عشر نقيبا من الأنصار اتباعا لذلك. و هكذا أصبح شيوخ التصوف ممتازين عن سواهم بالعلم السرى، و بصلاحيتهم للاجتهاد فى تجديد الدين، و بحريتهم فى اضفاء الألقاب على المريدين، و من ثم أصاب نظام الصحبه الاسلامى تغيير جوهرى تطور فيما بعد الى نوع من الافراط و الغلو. و لم يكن لهذا التطور أصل فى سلوك زين العابدين و معاصريه من أبناء عمه الحسن، و كانت الحاله النفسيه الناشئه من تداخل الشعور بالندم و الاضطهاد و الحب عاملا رئيسيا فى اندفاع الكثيرين من رجال التصوف نحو الشطط ما دام لهم مستند فى تجديد الاسلام و العلم السرى. و كان هذا الشطط هو الذى دعا الحارث ابن أسد المحاسبى الى مهاجمه الصوفيه فى عصره و اتهامهم بالكذب فى دعوى الحب، اذا أنهم لا يلتفتون الى سلوك المحبوب، و لا يكلفون أنفسم عناء تقليده فى العمل الذى يعتبر الدليل الأول و الأخير على صدق دعوى الحب. كما رماهم فى كثير من المواضع من كتابه «آداب النفوس»، و «أعمال القلوب و الجوارح» بأن فيهم غلطه وجهلا بالأخبار. و يبدو أن فكره الانتقال من مكان الى آخر فى لمح البصر، و فكره رؤيه الملائكه و مخاطبتهم كانت قد برزت فى عصر المحاسبى، لأنا نراه يهاجمها هجوما عنيفا فى كتابه آداب النفوس. و وجد الصوفيه فى هذا الميدان الجديد بديلا من المجاهدات الشاقه فأمعنوا فى دعوى الأسرار حتى أن بعضهم كان يصلى فى الكعبه و هو بعيد عنها بآلاف الأميال، و يعود فى نفس الليله على الصوره التى بنى عليها المحاسبى هجومه العنيف على القائلين بها. و نحن لا نحجر

على فضل الله بانكار الأسرار، و انما نقول: ان اذاعتها على هذه الصوره فتح باب الدعوى على مصراعيه، فادعى الكذابون ما ادعى الشيوخ، و اختلط الصادق بالمنافق و له فى دعوى السريه حصن حصين. و اضطرب نظام الصحبه الذى يعتبر أساس التصوف كما يعتبر أساس الحياه الاجتماعيه فى الاسلام، حتى لقد روى عن ذى النون المصرى أنه قال: «ليس مريد ألبته [صفحه ۹۸] من لم يكن أطوع لأستاذه من ربه». كما روى التشيرى عن الأستاذ أبى على الدقاق أنه كان يتساءل: «هل يحتمل أن يكون مقام النبى الذى يبعثه الله فوق مقام شيخه؟». ولكن السهروردى فصل فى هذه القضيه بما يقرب من الصواب، و بما يكشف عن حقيقه هامه فى مسأله الصحبه و امتزاج الأرواح و تلاقها فقال فى عوارف المعارف، العوارف: «اذا دخل المريد الصادق تحت حكم الشيخ و صحبه، و تأدب بآدابه، يسرى من باطن الشيخ حال الى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج. و كلام الشيخ يلقح باطن المريد، و يكون مقام الشيخ مستودع الحال، و ينتقل من الشيخ الى المريد بواسطه الصحبه و سماع المقال». و الواقع أن هذا الذى يذكر السهروردى صحيح، ولكن اتخاذه أصلا للسلوك، و الاقامه عليه، و العنايه بالحال السارى من الصاحب الأعلى مقاما الى الصاحب الأدنى، و عدم استخدام هذا الحال فى الاستزاده من العمل هو الخطر الداهم الذى جاء به هذا الاتجاه الجديد فى وقت لم يكن الناس بحاجه اليه بقدر ما كانوا بحاجه الى العمل البسيط الخالى من التعقيد. و لقد كان الصحابه أنفسهم يحسون هذا الحال السارى اليهم من النبى صلى الله عليه و سلم، و كانوا ينكرون أنفسهم حينما يفارقون مجلسه الى

أعمالهم المعاشيه، و كانوا يتعهدون هذا الحال فيهم، ولكن لم يؤثر عنهم أنهم أتخذوه موضوعا للحديث، و أساسا للبحث و الفحص يطغى على العمل الذى كرسوا حياتهم من أجله. و كانوا يبكون، و كانوا يشهدون الغرائب حين تلاوتهم للقرآن، و حين الصلاه، ولكنهم لم يتخذوا من ذلك الوجدان و لا من تلك الغرائب موضوعا لأحاديثهم، كما لم يحاولوا الاندفاع وراءها، و انتظارها، و لا قياس أنفسهم بورودها. كانت حضارتهم صاعده، و كانت أعمالم كلها مكله بالنجاح، و مع ذلك لم يقعدوا عن العمل، و لم يثرثروا بالأحوال و المقامات، و لم يحيدوا عن منهاج العمل المرسوم الذى نقله المحاسبى فى أعمال القلوب و الجوارح مرتبا حسن أهميته عندهم، فجعل معرفه الله تعالى فى الدرجه الأولى، و تتبعها اقامه الصلاه، ثم ارفاق بعضهم بعضا، و السعى على الأرامل و المساكين من اخوانهم. فهل كان المسلمون بحاجه الى ترديد الحديث عن المقامات و الأحوال و حضارتهم تتدهور عن قمتها فى سرعه، و الوعى الدينى يكاد يمحى من القلوب، و الدنيا بقتل، [صفحه ۹۹] و القلوب تنعقد على حبها؟ و لا نعتقد أن يقول بهذا أحد، ولكن الذى كان المسلمون بحاجه اليه هو احياء السنه، و التزام الكتاب، و العكوف على هذين الأصلين لا يتعدوهما الى ما سواهما، و الاحتفاظ بالمواجيد و المشاعر التى سميت فيما بعد بالأحوال لا يذيعها انسان لأخيه، و لا يتخذ منها مقياسا لنفسه و لا لغيره. ولكن الله تعالى أراد بحكمته أن يتم الشوط الى نهايه لحكمه تربويه عليا هى أن يتم اقتناع المسلم بفساد هذه الطريقه من داخل نفسه، حينما يرى النتيجه العمليه لاهمال العمل، و العدول عنه الى النظريات. و

مما يوسف له أن يتطور هذا السلوك الى ثرثره لا يحيد عنها مريدوا طريق التصوف فى روايه الكرامات و الأسرار و دعوى الصدق، و اسباغ القطبيه على الشيوخ، و الشيوخ بدروهم فى كثير من الأحوال ينفعلون لهذه الألقاب و كان ما كان من انحراف الطريق الصوفى عن جادته الأولى التى رسمها آل البيت، ولكنهم الآن بدأ يفتحون عيونهم على تركه منحوسه من الهوان فى العصر الحاضر، فبدوا بحمدالله فى تنقيه الطريق من الأشواك، و تيسيره للسالكين سنيانبويا يعود الى ما كان عليه النبى صلى الله عليه و سلم و صحابته وال بيته، و من هنا كانت أهميه احياء سيره آل البيت النبوى، لتكون نبراسا ينير الطريق للسالكين على الحق بعد انقضاء التجربه التى لم يكن عنها محيص، و التى كانت لها بركات فاضت من الله عالى شأنه فى كل نعمه و فى كل بليه. وايه تلك البركات التى تمخضت عنها بليه التحول النظرى من المنهج العملى ظهور دراسات نفسيه عميقه فى ميدان السلوك الصوفى لا يستغنى عنها رجال الحضاره الجديده فى عودتهم الى منهاجهم الأول. لقد جد التابعون لآل البيت فى استقصاء علل النفوس و القلوب الداعيه الى التخاذل فى العمل، أو الى الخروج به عن طريقه الصحيح فدونوها فى صوره وصايا أو فى صوره موازين فارقه بين حق العمل و باطله من الوجهه القلبيه، واهتدوا فى وصاياهم و موازينهم بالسنه النبويه و بالقرآن و بما أثر عن الصحابه وال البيت، و عنى بتلك الدراسات البادئه كثيرون من السلف منهم: الحسن البصرى، و مالك بن دينار، و الثورى، و ابن أدهم، و غيرهم كثيرون امتازوا بالدقه فى الفقه، و العمق فى كشف خفايا النفوس و تقلباتها.

ثم جاء أستاذ الدراسات النفسيه الاسلاميه الحارث بن أسد المحاسبى فجعل لآفات [صفحه ۱۰۰] النفوس و القلوب أبوابا مستقله تعهدها بالبحث و الاستقصاء و العمق، كما حدد معالم العمل الصحيح و مقوماته فى أبواب مستقله كذلك، و كانت بحوثه هذه بدايه دراسات نفسيه منظمه تعنى بالتحليل، و الخوض وراء أعماق النفس، و تتبع حركاتها و أساليب خداعها لصاحبها، فأصبح للسلوك عده علميه؛ كما كان للعمل عده شرعيه تعنى بالشروط و الأركان و تصحيحه من الوجهه الشكليه. و تلك البحوث و الدراسات و ظهورها على هذه الصوره من العمق و الثراء دليل على أن هذا التحول الذى حدث بعد عصر الراشدين كان أمرا طبيعيا، اذ أن المذاهب العظمى لا تمضى فى طريقها المراد لها الا بعد أن يصيبها اضطراب و زلزال بادى ء الأمر. لقد أصاب الناس فى حمل الشريعه نفس الأضطراب و الزلزال ممثلا فى الرده التى حدثت بعد وفاه النبى صلى الله عليه و سلم، و أصاب الناس اضطراب و زلزال فى السلوك بعد عصر الراشدين و بعد عصر زين العابدين بالذات باعتباره آخر الأئمه الملتزمين بمنهج العمل دون منهج الكلام. و كان لزلزال الشريعه رادع هو السيف، و لم يكن لزلزال السلوك رادع سوى الزمن و التجربه المره التى خاضها المسلمون الى وقتنا هذا. فالسلوك و آقامه أمور قلبيه ليس للسيف عليها سلطان. كان الزلزال الذى أشار القرآن الكريم الى ضروره اصابه المؤمنين به لتمحيص ايمانهم دليلا على جسامه شأن الايمان و الاخلاص و علوهما عن ادعاء المدعين، فدخل الناس تجربه طويله تمخضت عن دراسات و موازين نفسيه هامه كان لابد منها فى عصرنا الحاضر لاثبات غنى الاسلام عن دراسات النفس المستورده التى لا

زال الناس يتعلقون بها، بينما لم يحاول عالم من علماء المسلمين أن يجمع ما تناثر من تلك الدراسات فى كتاب مستقل يكون ماده لبحوث اسلاميه بحته، اللهم الا ما حاوله الأستاذ العلامه مصطفى بن كمال الدين البكرى فى كتابه المخطوط «العرائس القدسيه المفصحه عن الدسائس النفسيه». و هكذا تكمن النعمه فى البليه فى النعمه، و «عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم، و عسى أن تحبوا شيئا و هو شر لكم». فما يظنه بعض الناس شرا من اهمال مناهج آل البيت، و المضى فى المناهج النظريه كان خير بظهور الدراسات النفسيه الاسلاميه البحته، حتى تكون العوده على أسس سليمه من موازين الاسلام الخالصه. [صفحه ۱۰۱]

وفاته

لقد كان استعداد الامام للموت و وصيته فيما يصنع به بعد موته أصلا هاما من أصول السلوك يمكن أن يكون أصلا هاما من أصول السلوك يمكن أن يكون أصلا لا يحيد عنه الانسان. فقد أوصى فى روايه ابن سعد: «ألا يؤذن بموته أحد، و أن يكفن فى قطن، و أن يجعل فى حنوطه مسك، و أن يسرع به المشى». فعدم الايذان بموته ايثار منه للخمول، و مجانبه منه للشهره، و اغلاق لباب الغلو الذى كان قد انفتح و يوشك أن يشمل القيم الاسلاميه كلها. فاذا كان جده الأعلى صلى الله عليه و سلم يحب أن يؤذن اذا مات أحد الأصحاب، و يحب أن يجتمع الناس على جنازته انتهازا للثواب، و رجاء نفع الميت بدعاء اخوانه و صلاتهم عليه، فانما كان ذلك و الغلو مغلق الأبواب، و الخير مقبل، و الشر مدبر. أما زين العابدين فقد كان بصيرا بعصره، خبيرا بمسالك الفتن فيه، فآثر أن يجتهد برأيه و يؤثر خمول الذكر

على شهره الموت التى قد تكون بابا من أبواب الشر لم يشأ أن يسهم فى فتحه، و قد انفتح بالفعل بعده فيما نرى من دعاوى العامه عند موت عالم أو ولى من أولياء الله تعالى. و كانت وفاه الامام فى سنه أربع و تسعين، فى أولها عن ثمان و خمسين سنه. فى سنه الفقهاء. التى اشتهرت بهذا الاسم لكثره من مات من الفقهاء فيها، كسعيد بن جبير و سعيد بن المسيب و غيرهم. و قال أبونعيم الفضل بن دكين: توفى سنه اثنتين و تسعين. و قال بعضهم: سنه ثلاث و تسعين، و أغرب المدائنى فقال انه مات سنه تسع و تسعين. و الأول هو المشهور. و لما وضع الامام ليصلى عليه، اجتمع اليه الناس من كل فج ليشهدوه، و بقى سعيد بن المسيب وحده فى المسجد. فقال له: خشرم: ألا تشهد هذا الرجل الصالح فى البيت الصالح؟ فقال سعيد: أصلى ركعتين أحب الى من أن أشهد هذا الرجل الصالح فى البيت الصالح. و يبدو أن الناس قد ظنوا أن ابن المسيب يؤثر صلاه التطوع على شهود الجنازه، لأن [صفحه ١٠٢] سليمان بن يسار خرج الى الجنازه فصلى على الامام، و تبعه و هو يقول: «شهود الجنازه أحب من صلاه التطوع». و الحق أن ايثار ابن المسيب للصلاه لم يكن ناشئا عن جفاء للامام، و لا عن تفضيل لصلاه التطوع على شهود الجنازه، لأن ابن المسيب كان فيما يغلب على الظن قد أحس دنو أجله، و عاين النهايه المحتومه، لأنه مات بعد الامام بقليل، و للمؤمن دلائل و علامات ترهص بانتهاء أجله نعرفها من كثير ممن لم يبلغوا درجه ابن المسيب. و لذلك وحده آثر أن يضاعف جهده فى

الاستعداد للقاء الله تعالى، و أن يكون ما بقى من عمره من أيام معدوده عملا متواصلا لله تعالى رجاء أن يكون له منه رحمه أو طريق الى رحمه الله تعالى. أما أن يكون ابن المسيب جافيا للامام فلا. فهو يعرف قدر الامام و يدرك منزلته من النبى صلى الله عليه و سلم، و مكانه من الورع. فقد قال له رجل: ما رأيت أورع من فلان. فقال سعيد: هل رأيت على بن الحسين؟ قال: لا. قال سعيد: ما رأيت أورع منه. و كان دفن الامام بالبقيع. و ليس فى ضريحه الموجود فى مسجده بالقاهره. فهو ضريح رمزى رضى الله عنه، و قيل: ان فيه زيد بن على بن الحسين. والله أعلم. تم كتاب الامام السجاد على زين العابدين الحمدلله اشراف محمد بن على بن يوسف مكتبه القاهره الأزهر ٥٩٠٥٩٠٩ ص. ب.:٩۴۶ العتبه

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ۱۴۲۶ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبيّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ في المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فى نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فى مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فى الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسک kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹